

زهور

٢٤

حذار من الحب

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

حذار من الحب

الحب طريق محفـــوف   بزهور عـذاب وهلاك
وجراح يدميها الدمـــع   وقلوب تبـكى ذكراك
وفـؤاد ينبض فى صمت   لا ينطق كلمة أهـواك
فحذار من الحب حذار   لن تحصد إلا الأشواك

(نبيـــل)

١ – حبيبها ..

« هيَّا يا (إيمان) .. لقد حان موعد ذهابك إلى الكلية » ..

تسللت كلمات الأم الحانية إلى أذنَـىْ (إيمان)، وهى تجلس أمام مرآة حجرتها الصغيرة ، تضيف بعض اللمسات إلى وجهها ، قبل ذهابها إلى الكلية ، وحمل إليها الصوت قلق الأم ولهفتها ، فأجابتها فى هدوء ، وهى تبدأ فى تصفيف شعرها فى عناية :

– حالاً يا أمى .. اطمئنِّى .. ستبدأ أولى محاضرات اليوم متأخرة بعض الشىء .

تأملت الأم ابنتها فى مزيج من الحنان والإشفاق ، ثم غمغمت فى صوت خافت ، وكأنها تحادث نفسها :

– أخشى أن تتأخر الحافلة أيضاً .

ودون أن تنتظر جواباً من ابنتها ، غادرت الحجرة فى خطوات خافتة ، وأغلقت الباب خلفها فى رفق ، وكأنها تعلن استسلامها لإرادة ابنتها ، ولم تكد (إيمان)

تسمع صوت الباب وهو يغلق ، حتى تنهّدت فى صوت مسموع ، وتوقفت عن تصفيف شعرها ، ومطّت شفتيها فى ضجر ، وهى تتأمل ملامحها فى المرآة الصغيرة ، التى اختفى بريق أطرافها بفعل القِـدَم ورداءة النوع ..

كان من الصعب أن توصف (إيمان) بالجمال ..

وهى نفسها كانت تعترف بذلك ..

كانت نحيلة للغاية ، حتى أن عظام وجنتيها كانتا تبرزان على نحو عجيب ، وعيناها تبدوان غائرتين ، على الرغم من اتساعهما ، وسوادهما الفاحم ، أما أنفها فيميل إلى الطول ، ويستدقُّ فى نهايته ، مبرزاً شفتيها الرفيعتين ، اللتين تبدوان كخطّين حمراوين فوق ذقنها الحادة ..

ولكنها كانت تمتلك شعراً ناعماً ، فاحماً ، ينسدل على كتفيها فى رقة ونعومة ..

وكانت تعلم أن شعرها هو أجمل ما فيها ؛ لذا فقد كانت توليه عظيم عنايتها واهتمامها ؛ لتحافظ على لمعانه وتألُّقه ، ونُعومته ..

وفى تلك اللحظة ، وهى تتأمل وجهها فى المرآة ، انتابها ذلك الحنَق الذى يُراوِدها دَوْماً ، كلما تطلّعت إلى ملامحها ، وتفرّست فى وَجهها النحيل ، الذى يثير ضيقها وكآبتها ..

وابتسمت فى مرارة ..

ابتسمت وهى تلعن قوانين الوراثة ، التى شاءت أن تمنح شقيقها الوحيد جمال أمها ، وعينيها الخضراوين ، ووجهها الممتلئ دون بدانة ، فى حين اختصتها هى بنُحول والدها ، وأنفه الطويل ، وشفتيه الرفيعتين ..

وتساءلت فى حنَق : لِمَ عكسَتْ قوانين الوارثة الأمر إلى هذا الحدّ ؟ ..

لقد بدأ شعورها بذلك وهى بعدُ طفلة صغيرة ، حينما كانت تسمع تعليقات الأقارب والأصدقاء ، وهم يعجبون لذلك التناقض بين ملامحها وملامح شقيقها ، وهم يظنون أنها لا تفهم تعليقاتهم ، ولا تشعر بالسخرية المختفية خلفها ..

وكان ذلك يؤلمها ..

ومع وصولها إلى مرحلة الأنوثة والنُّضج ، تحولت آلامها إلى حزن عميق ، وشعور قوىّ بالنقص ..

كانت تقارن ملامحها بملامح زميلاتها فى المدرسة ، فتجدهن جميعاً أكثر ملاحة وجمالا ، وترى نفسها أكثرهن قبحاً ودَمامة ..

لم تكن دَميمة كما تتصور نفسها ، وإنما كان شعورها بالنقص هو الذى يصوِّر لها ذلك ..

ومن العجيب أن أحداً لم يشعر بحزنها ومرارتها ، وبشعورها بالنقص ، فبدلا من أن يدفعها ذلك الشعور إلى الانطواء والعُزْلة ، كما يحدث عادة ، وجدت نفسها تنغمس فى النشاطات والصداقات ، وتبدو دائماً شديدة المرح ، ساخرة ، وكأنما تخفى كل مشاعرها الحقيقية خلف ذلك القِناع اللاهى البسيط ..

وأصبح لها العديد من الصديقات ..

كانت تشعر فى بعض الأحيان أنهن يلتصقن بها حتى يبرزن جمالهن ، فدمامتها وهى تسير إلى جوارهن سيمنحهن مزيداً من التألُّق والجمال ، بحكم التناقض

والمقارنة ، فالفتاة العادية ستبدو إلى جوارها جميلة ، والجميلة ستبدو رائعة الجمال ..

وهكذا وَقَر فى أعماقها أن كل صديقاتها لا يبغين سوى استغلال دمامتها ، فنمت فى أعماقها مع مرور الوقت شخصيتان متناقضتان ..

كانت فى ظاهرها فتاة مرحة ، لا تبتئس أبداً ، ولا يلمح أحد الحزن فى محياها قط ، اجتماعية ، نشطة ، ساخرة ..

أما فى أعماقها ، فقد كانت تختلف تماماً ..

كانت حزينة ، بائسة ، تميل إلى الانطواء والعزلة ..

هى وحدها كانت تعجب من قدرتها على تمثيل دور الفتاة المرحة طوال الوقت ..

كانت تعجب من استطاعتها الاحتفاظ بذلك القناع الباسم على وجهها ، فى كل المجتمعات ، وحتى وسط أسرتها ..

ولكن هذا القناع كان ينهار تماماً حينما تنفرد بنفسها ؛ فتسقط ابتسامتها ، وتنهار بساطتها ، ويتلاشى مرحها ..

وكثيراً ما انخرطت فى بكاء حار ، وهى تدفن وجهها فى وسادتها ، التى باتت صديقتها الوحيدة ، التى تقص عليها لواذع قلبها ، وآلام نفسها ..

ولكن حافظت على القناع ، حتى بعد نجاحها بتفوُّق فى الثانوية العامة ، والتحاقها بكلية الطب .

لقد شعرت بسعادة لا توصف ، حينما التحقت بتلك الكلية ، لا لأنها كانت تطمح فى العمل كطبيبة ، ولكن لأنها نجحت فى تحقيق التفوُّق على زميلاتها ، اللاتى يتفوَّقن عليها بجمالهن وملاحتهن ..

وعاونها ذلك الإحساس بالتفوُّق على التقدُّم فى الكلية ، والارتباط بكل حلقات النشاط داخلها ، حتى قرنت تفوقها العلمى ، بتفوق اجتماعى بارز داخل أروِقة الجامعة ، جعلها تحصل فى نهاية العام الماضى على لقب (الطالبة المثالية) ..

ولكنها كانت تفتقر إلى عاطفة قوية ، فى تلك السنوات التى تتأجج فيها العواطف ، وتنطلق فيها نسمات الحب والحنان ..

كانت تفتقر إلى الحب .. أو ربما كانت تخشاه ..

كانت تلك الشخصية الأخرى فى أعماقها تقتل تلك العاطفة دَوْماً ..

كلما مالت إلى زميل ، أو صديق ، أو شعر قلبها بخفقان العاطفة ، كانت أعماقها تصرخ بها ..

حذارِ من الحب ..

كانت تؤكد لنفسها دَوْماً أنها لا تصلح للحب ، ولا تمتلك ما يؤهلها له ، فهى – حسبما تظن – دميمة ، من أسرة عادية ، لا هى بالثرية ، ولا بالشديدة الفقر ، ولكنها على الأقل – مثل معظم الأسر فى مصر – تُؤَمِّن لها ضروريات الحياة :.

حتى خفق قلبها ذات مرة ، وعجزت أعماقها عن وأدِ خفقاته ..

وأحبَّت .. أحبت الشخص الوحيد ، الذى منحها لمسة حب وحنان ..

وجاء ذلك عفويًّا ، رقيقاً ، بسيطاً ..

كان ذلك منذ أسبوع واحد ، حينما فاض بها

الكيل ذات مرة ، وشعرت أنها لم تعد تحتمل ذلك القناع المرح ، الذى تضعه على وجهها ، وأن شفتيها قد أصبحتا تعجزان عن الاحتفاظ بتلك الابتسامة المصطنعة الدائمة ..

بدت ابتسامتها — فى ذلك اليوم — ثقيلة ، مؤلمة ، تمزق شفتيها ، وتنتزع عضلات وجهها ..

واعتذرت لِمَنْ حولها فى رقة ، وأسرعت إلى ركن منزو فى حديقة الكلية ، وأدارت وجهها للحديقة ، وألقت القناع المرح جانباً ، وتركت لدموعها العنان ..

لم تدر — يومها — كم مضى عليها من الوقت وهى تبكى ، ولكنَّ بكاءها تحول فجأة إلى شهقة قوية ، وارتجافة شملت جسدها كله ، حينما شعرت بيد تمس كتفها فى رفق ، وسمعت صوتاً يهمس فى حنان وجزع :

— (إيمان) ؟! .. هل تبكين ؟

انتابها الذعر حينما التفتت إليه ، وعيناها مبللتانِ بالدموع ..

وتطلعت إليه لحظة فى مزيج من الدهشة والخوف ، كأنما ضبطها بجرم مشهود ..

كان (منير) .. زميلها فى الكلية ، وكان يكبرُها بعامين ، ويشاركها نشاطها فى فريق الجوَّالة بالكلية ..

وكانت عيناه ، فى تلك اللحظة ، صورة مجسمة للحنان والعطف ..

وأسرعت تجفف دموعها ، وتبتسم ابتسامة شاحبة ، وهى تغمغم فى ارتباك :

— كلاَّ .. إنها بعض ذرات التراب و ..

لم تكن لهجتها مقنعة ، حتى بالنسبة لها ، فبترت عبارتها ، وخفضت وجهها ، حتى تتحاشى نظراته الفاحصة الحنون ، وتركته يجلس إلى جوارها فى رفق ، وهو يسألها فى حنان :

— ماذا بك يا (إيمان) ؟

عجزت عن إجابته .. وعجزت أيضاً عن إخفاء دموعها ، التى عادت تنهمر فى غزارة ، وصمت هو طويلا ، وكأنما يترك لدموعها فرصة إفراغ حزنها ، ثم قال فى همس :

— لن أسألك عما يحزنك يا (إيمان) ، فهذا شأنك

وحدك ، ولكن دموعك تؤلمنى ، فجففيها أرجوك .

أدهشتها عبارته الحنون ، حتى أنها لم تبذل جهداً لتجفيف دموعها ، التى تحجَّرت فى عينيها ، وهى ترفعهما إليه فى حيْرَة ..

وخفق قلبهـا فى قوة ، وهى تتطلـع إلى ملامحه الوسيمة ، ووجدت نفسها تردِّد فى دهشة :

– تؤلمك ؟!

أومأ برأسه إيجاباً فى هدوء، وهو يقول فى حنان :

– بالطبع يا (إيمان) .. إنك لا تعلمين كم أقدرك وأحترمك .

اتسعت عيناها ، وهى تتطلع إليه فى دهشة ..

يقدِّرها ويحترمها ؟! ..

ماذا يعنى بكلماته ؟ ..

ماذا يعنى بحنانه ؟ ..

ألا يعلم أنه هو بالذات يثير تقديرها واحترامها ، منذ عملهما معاً فى أنشطة الجوالة ؟

ألا يعلم أن إعجابها به قد كاد يتطور فى أكثر من

مرة إلى حب ، لولا إصرارها على ألا تقتحم تلك العاطفة قلبها قط ؟! ..

ترى هل تعنى كلماته الحانية هذه أنه يبادلها نفس الشعور ، الذى تقتله دوماً فى أعماقها ؟ ..

ولكن كلاَّ ..

من الخطإ أن تقنع نفسها بذلك ..

من الخطإ أن تمنح نفسها أملا زائفاً ، لا يلبث أن ينهار ، فيورثها مزيداً من الحزن والآلام ..

ومرة أخرى وأدت ذلك الشعور النبيل فى أعماقها ، وجففت دموعها وهى تتحاشى النظر إليه ، مغمغمة :

– لا عليك يا (منير) ! ! إن الدموع تعبر أحياناً عما تعجز الكلمات عن التعبير عنه .

أجابها فى هدوء :

– هذا صحيح ، فالدموع تُخمِد بعض الأحزان ، ولكنها لا تقتلها .

ابتسمت فى حزن ، وهى تتمتم :

– هل تنوى التخصص فى الطب النفسى ؟

ضحك وهو يقول :

– لا .. إننى أعشق الجراحة .

كانت ضحكته صافية جذّابة ، حتى أنها خلقت فى نفسها شعوراً حقيقيًّا بالمرح ، وهى تقول :

– هذا واضح ، فأنت تهوى تمزيق كل لوحات الحائط ، التى نصنعها فى الجوّالة .

كانت تتوقع منه أن يجيبها بعبارة مرحة كعادته ، إلا أنه صمت لحظة ، قبل أن يقول فى هدوء وحنان :

– هـل رأيت كيف يُشـرق وجهـك حينما تضحكين ؟

سرَت فى جسدها قُشَعريرة عجيبة ، حينما نطق بعبارته ، ووجدت نفسها تعود لتتطلع إلى وجهه فى دهشة ، وهى تشعر بدماء الخجل تتصاعد إلى وجنتيها ، فأطرقت برأسها ، وابتسمت وهى تقول :

– لو أردت رأيى ، فأنت تصلح حقًّا للطب النفسى .

ابتسم ، وهو يقول :

– إذن فقد نجحت فى إزالة حزنك .

أومأت برأسها إيجاباً فى حياء ، فاتسعت ابتسامته ، وهو ينهض قائلا :

– هيّا نعُدْ إذن إلى حجرة الجوّالة .

كانت لهجته ، وهو ينطق عبارته الأخيرة ، مزيجاً من الحنان والصرامة ، فنهضت تتبعه فى استسلام ، وقلبها يخفق فى عُنف ..

ولم يكن أمامها سوى أن تعترف ..

لقد أحبّت (منير) ..

لأول مرة فى حياتها لم تعد تستطيع وأد مشاعرها ، فتركتها تنطلق على سجيتها ، وتعترف بحقيقتها ..

ومنذ تلك اللحظة لم يعد (منير) زميلها فحسب ..

لقد صار زميلها وحبيبها ..

ولكن القدر كان يأبى عليها أن تنعم بتلك العاطفة السامية ..

وكان يُعِدّ لها مفاجأة ..

مفاجأة قاسية ..

* * *

٢ ـ المفاجأة ..

تململت (إيمان) فى وقفتها ، وهى تنتظر فى لهفة مقْدَم الحافلة العامة التى اعتادت أن تستقلها إلى كليتها ، وتنقل بصرها ـ ما بين لحظة وأخرى ـ إلى نهاية الطريق ، تتعجل قدومها ، وعلت شفتيها ابتسامة مرحة حقيقية ، وهى تقارن ما بين لهفتها اليوم ، وضجرها فيما مضى من تأخر الحافلة ..

لقد كانت تصاب بسخط شديد كلما تأخرت الحافلة فى الماضى ؛ لأن الذهاب إلى الكلية كان بالنسبة لها ـ فيما مضى ـ مهمة ثقيلة ، تضطر خلالها إلى ارتداء قناعها الزائف ، الذى يثقل كاهلها ، وهى تتظاهر بالمرح طوال الوقت ، وكان انتظار الحافلة طويلاً يعنى لها مزيداً من العذاب والضجر ، أما الآن فقد أصبحت تتلهف على الذهاب إلى الكلية ، حتى ترى (منير) ، وتلتقى به ..

لقد مزج الحب شخصيتيها المتناقضتين ، أو أنه

محا تلك الشخصية الانطوائية الساخطة ، ولم يترك سوى تلك الشخصية المحبة ، التى تضحك فى سعادة حقيقية ، وتبتسم فى مرح لا زيف فيه ..

لقد أعاد إليها (منير) ثقتها بنفسها ، وجعلها تشعر أنها فتاة عادية ، يمكنها أن تحب وأن تحب ، وجعلها تطلق لعواطفها العنان ـ لأول مرة فى حياتها ـ فتعترف بالحب ، وتنغمس فيه حتى النخاع ..

صحيح أن (منير) لم يصرح لها بحبه ، ولكنها كانت تعلم أن الحب واحد من أرقى العواطف ، وأسماها فى هذا الكون ، وأن صاحبه لا يحتاج إلى أن يصرح به ، فهو يعترف به فى كلماته ، ونظراته ، ولمساته ..

ولقد منحها (منير) كل هذا ..

منذ أن شاركها ذلك المجلس الذى بكت فيه لأول مرة ، فى حديقة الكلية ، وهو يعاملها بمزيد من الرقة والاهتمام والرعاية ، ويسألها رأيها فى كل ما يقلقه أو يشغَلُه ، فى حياته الخاصة ، أو الدراسية ، حتى لم يعد باقياً إلا أن يبثها كلمة الحب صراحة ..

ولقد صنع هذا الحب بها أكبر معجزة فى حياتها .

لقد صنع منها شخصية جديدة ..

ووصلت الحافلة المزدحمة ، لتنتزعها من أفكارها ، فقفزت إليها فى رشاقة ، وحشرت جسدها بين الأجساد المكتظة داخلها ، دون أن تشكو أو تتزمر كعادتها ، وساعدها نحولها على أن تتسلل وسط زحام الحافلة ، حتى وصلت إلى منطقة هادئة نسبيًّا ، فتشبثت بإطار المقعد المجاور لها ، ووقفت تنتظر وصول الحافلة إلى الكلية فى لهفة ، أنستها الزحام ، والتخبط ، حتى وصلت إلى الكلية ، فقفزت منها فى رشاقة ، ووقفت تعدل من ثوبها ، وتتحسس شعرها فى اهتمام ، لتتأكد من أن الزحام لم يفسد تصفيفته ، ثم اندفعت إلى الكلية ، وهى تمتلئ بالشوق واللهفة لرؤية (منير) ..

وارتجف جسدها فى نشوة ، عندما وقع بصرها عليه ..

كان يجلس صامتاً ، يداعب الرمال بطـَرف غصن جاف صغير ، فى شُرود ، وكأنه مستغرق فى تفكير

عميق ، فأسرعت إليه فى خطوات مرحة واسعة ، وهتفت حينما أصبحت على قيد خطوات منه :

— أين ذهب عقلك يا جراح المستقبل ؟

رفع عينيه إليها فى هدوء ، وابتسم فى شرود وهو يقول :

— مرحباً يا (إيمان) .. كيف حالك ؟

كانت إجابته روتينية جافة ، إلا أنها تجاهلتها ، وهى تجلس إلى جواره ، قائلة فى مرح :

— ماذا يقلقك ؟

بدت ابتسامته باهتة ، وهو يغمغم :

— لا شىء .. لا شىء يا (إيمان) .

وعاد يخط رموزاً وهمية بطرف الغصن فوق الرمال ، وشملهما الصمت ، وهى تتأمله فى وَلَهٍ وشغف ، وتملأ عينيها بوسامته وملاحته ، دون أن تبالى بما تفصح عنه نظراتها الواضحة ، ثم سألته فى خفوت :

— ألا تريد أن تخبرنى ماذا يقلقك ؟

غمغم دون أن يلتفت إليها :

- لا شيء يا (إيمان) .. لا تقلق .

كان يطلب منها ألا تقلق ، ولكن عبارته حملت إليها كل القلق ، فاصطنعت ابتسامة مرحة ، وهى تسأله :

- ألم نتفق أننا صديقان يا (منير) ؟

أجابها فى حماس :

- بالطبع .

أسعدها حماسه ، فعادت تقول فى اهتمام :

- أليس من حق الصديق إذن أن يعلم ماذا يقلق صديقه ؟

فتر حماسه بغتة ، وتردد وهو يغمغم :

- نعم .. أعتقد ذلك .

هتفت فى لهفة :

- من حقى إذن أن أعلم ماذا يقلقك ؟

ظهر تردده واضحاً فى قسماته ، وهو يشرد ببصره بعيداً ، متمتماً :

- نعم .. ولكن ..

بتر عبارته ، ولاذ بالصمت لحظة ، ثم قال فى حزم ، وكأنما حسم رأيه :

- نعم يا (إيمان) .. من حقك أن تعلمى ، وأعتقد أنك المخلوق الوحيد فى هذا العالم ، الذى يمكنه معاونتى :

ارتفع حاجباها فى حنان ، وهى تهمس فى حب :

- بالطبع يا (منير) .. ثق أننى سأفعل أقصى ما يمكننى لمعاونتك .

ثم استطردت فى اهتمام :

- والآن ماذا يقلقك ؟

عاد إلى شروده بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى لهجة حالمة ، ارتجف لها كيان (إيمان) كله :

- (ناهد) .

ارتجف قلبها فى قوة . ثم اعتصرته قبضة باردة ، كادت توقف نبضاته ، وهى تتطلع إليه فى ذهول ، وصورة (ناهد) تقفز إلى ذهنها واضحة جلية ..

(ناهد) ..

تلك الفتاة الحسناء ، ذات الشعر الكستنائى الجميل

والبشرة الوردية ، والعينين الزرقاوين الواسعتين ، والشفتين المتوردتين الفاتنتين ..

تلك الفتاة الثرية ، التى تختال بأثوابها الأنيقة ، الغالية الثمن ، المنتقاة من أرقى بيوت الأزياء الباريسية ..

تلك الفاتنة التى انضمت أخيراً إلى الجوَّالة ، لا لتشارك فى أنشطة الكلية ، وإنما لتضيف ثوب الجوَّالة وشعارها إلى صوان ملابسها ..

قفزت صورة (ناهد) كلها إلى ذهنها ، وهى تسأله فى صوت مختنق ، متحشرج :

ـ ماذا تريد من (ناهد) ؟

كانت تعلم الجواب مسبقاً ، قبل أن تنطق به شفتاه ..

كانت تقرؤه فى صوته الحالم ، ونظراته الوَلهَى الشاردة ..

كانت تعلم ، ولكن ذلك لم يمنع تلك الصاعقة التى أصابت قلبها ، حينما أجابها فى حزن :

ـ إننى أحبها يا (إيمان) ..

تراجعت فى ألم ومرارة ، وكأنما طعن جوابه قلبها

طعنة نجلاء ، مزقت كيانها وعواطفها بلا رحمة أو شفقة ..

تراجعت وقد انتزعت إجابته روحها ، وتركتها جسداً بلا روح ..

ولم يعد قلبها يخفق ..

بل لم يعد ينبض ..

لقد اختلج اختلاجته الأخيرة ، ثم هوى كطير ذبيح ..

وغمغمت فى مرارة لم يشعر بها سواها :

ـ تحبها ؟!

لم يشعر (منير) بآلامها ومرارتها ..

لم يشعر ؛ لأنه كان يهيم فى صورة (ناهد) ، التى ملأت خياله وقلبه ..

كل ما فعله هو أن هتف فى شغف :

ـ نعم يا (إيمان) .. أحبها .. أحبها منذ وقعت عيناى عليها لأول مرة يا (إيمان) .. إنها أول حب فى حياتى ، ولكنها لا تعلم أننى أحبها .

أول حب فى حياته ؟! ..

لا تعلم أنه يحبها ؟! ..

وشحب وجه (إيمان) ، حتى خلا من الدماء تماماً ؛ وسرت قشعريرة باردة فى جسدها ، وتصلبت أطرافها ، وهى تصرخ فى أعماقها فى ألم ومرارة ..

إذن فهو لم يحبها ..

لم يحبها أبداً ..

لقد كانت علاقته بها لا تعدو نوعاً من الشفقة والعطف ..

إنه يحب (ناهد) ..

يحبها منذ البداية ..

يالسخرية القدر ! ! ..

لقد أوصدت باب قلبها فى وجه الحب طويلا ، واحتملت حياتها بلا عواطف أو مشاعر ، وقتلت فى أعماقها كل شعور وإحساس ، حتى تصورت أن (منير) يحبها ، ففتحت قلبها للحب ، وأطلقت العنان لمشاعرها ،

ثم جاء (منير) نفسه ، ليحطم هذا القلب المفتوح ، ويذبح المشاعر المنطلقة ..

وسقطت الشخصية المرحة قتيلة تحت قدمى القلب الذبيح ، ونهضت الشخصية البائسة كالعنقاء من الرماد ، وتنفست الصعداء ، والتقطت القناع الملقى جانباً ، وأعادته إلى وجه (إيمان) الممتقع ، وتناولت ريشتها ، لترسم فى براعة ابتسامة هادئة على شفتيها الرفيعتين ، وهى تقول فى برود :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

تناول كفها فى راحته فى لهفة ، وتطلع إلى عينيها فى ضراعة ، وهو يهتف فى رجاء :

تحدثى إليها يا (إيمان) .. أخبريها أننى أحبها .

تتحدث إليها ؟! .. يا له من مطلب ! ! ..

أيريدها أن تتحول من حبيبة إلى همزة وصل بين من أحبت ، ومن أحب ؟! ..

أيطلب منها أن تُعِدَّ بنفسها مَذْبحَ حبها ؟! ..

يا للعجب ! ! ..

إنها تشعر بكفها باردةً فى راحته ، فى حين أنه لو التقط كفها على هذا النحو منذ ساعة واحدة ما ترددت فى إلقاء نفسها بين ذراعيه ..

وكادت ترفض فى استنكار ..

كادت تفعل ، لولا أن خشيت أن يفضح هذا التصرف حقيقة مشاعرها نحوه ..

كادت ترفض ، ولكن لسانها أجاب فى هدوء ، لم تدر كيف أمكنها افتعاله :

حسناً يا (منير) .. سأخبرها .

تهللت أساريره ، وهو يهتف فى سعادة :

— شكراً يا (إيمان) .. شكراً .. أنت خير صديقة .

منحته ابتسامة شاحبة ، ثم نهضت وهى تقول فى برود :

— سأفعل حينما أجد فرصة مناسبة ، فلا تتعجلنى .

هتف فى لهفة :

— لن أتعجلك ، ولكن اجعليها أقرب فرصة

مناسبة .. أنت لا تدرين كم يعنى ذلك لحياتى ومستقبلى .

ابتسمت ابتسامة هى أقرب إلى البكاء ، وغمغمت فى صوت مختنق :

— اطمئن .

ثم أسرعت تبتعد قبل أن تنهمر تلك الدموع ، التى تجاهد لحبسها فى عينيها ..

ولم تتجه إلى قاعة المحاضرات ، بل غادرت الكلية كلها ..

وتركت دموعها تنهمر فى غزارة ..

لقد ضاع الحب ..

وضاع الأمل ..



٣ ـ العـودة ..

لم تستطع الأم إخفاء دهشتها ، عندما فوجئت بابنتها تعود إلى المنزل ، فى هذا الوقت المبكر ، ممتقعة الوجه ، محمرة العينين ، يلوح الحزن فى كل خلْجة من خلَجات وجهها ، فهتفت فى مزيج من الحيْرَة والجزع :

— ماذا بك يا (إيمان) ؟ .. لماذا عدت مبكرةً هكذا ؟

تجاهلت (إيمان) الجزء الأول من السؤال ، وأشاحت بوجهها ، وهى تسرع نحو حجرتها ، قائلة :

— لقد ألغيت محاضرات اليوم .

كانت تأمل أن تكتفى أمها بهذا الجواب المقتضب إلا أن الأم أسرعت خلفها ، وهى تهتف فى لهفة :

— وماذا بك ؟ .. هل كنت تبكين ؟

غمغمت فى ضيق :

— لا .. لقد أصاب عينى بعض الغبار .

ترددت الأم على باب الحجرة لحظة ، وقد بدا لها

التبرير هزيلا واهياً ، لا يفسر امتقاع وجه ابنتها ، وعصبيتها ، إلا أنها لم تلبث أن استسلمت لرغبة ابنتها فى كتمان سر حزنها ، فغمغمت فى صوت حنون ، بالغ الخفوت :

— هل أعدّ لك طعام الغداء ؟

هزت (إيمان) رأسها نفياً ، وهى تقول فى عصبية :

— لا .. إننى لا أشعر بالجوع .

أومأت الأم برأسها فى حزن واستسلام ، وغادرت الحجرة فى هدوء ، وأغلقت الباب خلفها فى رفق ، وتركت ابنتها تجتر مرارتها وآلامها ..

وتركت (إيمان) الحزن يرتسم على محياها ، بعد انصراف والدتها ، والتفتت إلى مرآتها القديمة ، تتطلع إلى وجهها فى مزيج من السُّخط والمرارة ..

وغمغمت وهى تمسح وجهها بعينيها فى ألم :

— يالك من غبية ! .. كيف تصورت أن يقع شاب وسيم ثرى مثل (منير) فى حب دميمة مثلك ؟ ..

كيف تصورت أن الوسامة يمكنها أن تختار أشواك القبح ، وسط بستان الجمال ؟ ..

من الطبيعى أن يتعلق (منير) بحب (ناهد) ، فالطيور على أشكالها تقع ، فهو ثرى وهى ثرية ..

هو وسيم ، وهى فاتنة ..

لقد خلق كل منهما للآخر ..

أيتها الغبية ..

ألا ترين وجهك فى المرآة ؟! ..

هل تجدين أى وجه للمقارنة بينه وبين وجه (ناهد) الساحر الفاتن ؟ ..

ألا ترين ثوبك البسيط ، المصنوع من أرخص أنواع الأقمشة ؟ ..

هل تعلمين كم ثوبًا مثله يمكن لـ (ناهد) أن تقتنيه ، بثمن ثوب واحد من أثوابها ؟ ..

أفيقى من أوهامك أيتها التعسة ..

الحب ليس للدميات مثلك ..

حذارِ من الحب .. حذارِ ..

لن يورثك إلا الألم والعذاب والحزن ..

حذارِ أيتها الدميمة .. حذارِ ..

انطلقت عبارتها الأخيرة من بين شفتيها واضحة مسموعة ، وخيِّل إليها أنها ظلت تتردَّد فى الحجرة طويلا ، حتى بعد أن أغلقت شفتيها ، واتسعت عيناها فى هلع ، وهى تتطلع إلى وجهها ، الذى بدا لها ، فى ظل حزنها ، أبشع الوجوه ، وأكثرها قبحاً ودمامة ، فحجبته بكفيها ، وانفجرت تبكى فى ألم ومرارة ..

عجيبة هى هذه الدموع !! ..

إنها تنطلق من عيوننا فى غزارة وإسراف حينما نفرح ، أو نحزن ..

وهى دائماً ساخنة ..

وهى دائماً صادقة ..

وبكت (إيمان) .. وبكت .. وبكت ، حتى خيِّل إليها أن دموعها قد جفت وانتهت ..

وكان ذلك فى الثانية صباحاً ..

كانت ترقد فوق فراشها كالجثة الهامدة ، ودموعها

تبلل وسادتها تماماً ، حينما كشفت أنها لم تعد تبكى ..

ولقد أدهشها ذلك فى البداية ، وكأنه ليس من الطبيعى أن تتوقف دموعها ، ثم لم يلبث عقلها أن استعاد هدوءه ، وقدرته على التفكير ، فبدا لها - حينئذ - توقف دموعها أمراً منطقيًّا ..

إن الأمر لم يعد - بالنسبة إليها - قاسياً مريراً ، كما كان فى الصباح ..

لقد أصبح أمراً واقعاً ، من كثرة ما تذكرته ، وناقشت عقلها وقلبها فيه ، ولقد اعتادت أن تقبل الأمور الواقعية فى استسلام ..

وبدأت تفكر فيما ينبغى عليها أن تفعله ..

أتخبر (ناهد) بحب (منير) لها ، أم تتجاهل الأمر برُمَّته ؟ ..

وبدأت تدرس كلا الأمرين فى رويَّة وإمعان ، حتى اتخذ عقلها قراره ، متجاهلا أنين قلبها ولوعته ..

ستخبر (ناهد) ..

ستخبرها لتؤكد لنفسها أن أمر (منير) لم يعد يعنيها ..

ستخبرها حتى تتخلص من الموقف ، ومن كل الحب الذى بقى فى قلبها لـ (منير) ..

إنه قرارها ، ولن تتراجع عنه أبداً ..

وذهبت إليها فى الصباح التالى ..

لم تبحث عنها طويلا ؛ لأن (ناهد) قلما تفارق حجرة الجوَّالة ، حتى فى أثناء مواعيد محاضراتها ..

واستقبلتها (ناهد) بابتسامتها الباردة ، المتعجرفة ، حتى كادت تتراجع عن إتمام ماعزمت عليه ، إلا أن شعوراً قويًّا بالعناد فى أعماقها منعها من التراجع .. ربما لتثبت لنفسها أنها أقوى من الصدمة ، فقالت لـ (ناهد) فى لهجة جاءت على الرغم منها صارمة :

- أريد أن أتحدث إليك وحدنا يا (ناهد) .

ألقت إليها (ناهد) نظرة لا مبالية ، وهى تقول :

- الآن ؟

جاءت لهجة (إيمان) أكثر صرامة ، وهى تقول :

- نعم .. الآن .

هزت (ناهد) كتفيها فى استخفاف ، وهى تقول :

ـــ لا بأس .. تعالى إلى ذلك الركن .

وتبعتها (إيمان) فى هدوء ، حتى اتخذتا مجلسهما فى ركن منفرد بالحجرة ، وضايقها ذلك البريق الخبيث الذى بدا فى عينى (ناهد) ، حينما قالت فى لهجة أقرب إلى السخرية :

ـــ ماذا تريدين ؟

ازدردت (إيمان) لعابها ، لتمنع الثورة العارمة فى أعماقها من البروز إلى السطح ، وهى تقول فى عجلة ، وكأنما تلقى الحمل عن كاهلها :

ـــ هل تعلمين أن (منير) يحبك ؟

كانت (إيمان) تتوقع أن تشهق (ناهد) من فرط المفاجأة ، أو تتسع عيناها على الأقل ، إلا أن (ناهد) اكتفت بإرجاع رأسها إلى الخلف ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة متغطرسة ، وقالت فى برود ، وهى تتطلع بعينين نصف مغلقتين إلى عينى (إيمان) :

ـــ أعلم ذلك .

وكانت الدهشة من نصيب (إيمان) ، وهى تهتف :

ـــ تعلمين ذلك ؟! .. هل أخبرك ؟

هزّت (ناهد) كتفيها فى لا مبالاة ، وهى تقول :

ـــ لست أحتاج إلى ذلك .. تكفينى نظراته الوَلهَى كلما تطلع إلىّ ، وصوته المتهدج كلما تحدثنا .

ثم مالت نحوها ، وهى تستطرد فى خبث :

ـــ إن الحب يفضح نفسه ، مهما حاولنا إخفاءه .

انقبض قلب (إيمان) ، وقد أنبأتها غريزتها أن (ناهد) تلمح إلى حبها لـ (منير) ، الذى كان يبدو واضحاً ـــ دون شك ـــ فى حديثها إليه ، ونظراتها له ، ولكنها حافظت على تماسكها ، وهى تقول فى لهجة جافة :

ـــ وما رأيك ؟

هتفت (ناهد) فى استنكار :

ـــ رأيى فى ماذا ؟

غمغمت (إيمان) فى صوت مرتجف ، شديد الخفوت :

ـــ رأيك فى حبه !

أطلقت (ناهد) ضحكة ساخرة ممطوطة ، وعاد

ذلك الخبث يتألق فى عينيها ، وهى تميل نحو (إيمان) ، قائلة :

- وهل تؤخذ الآراء فى الحب ؟ .. هل تتصورين منى أن أقول : إننى أوافق على حبه لى ؟ .. أو على حبى له ؟ .. إذا كان يحبنى حقًّا فليتقدم لخطبتى ، وحينئذ يمكنه أن يسألنى رأيى .

ازدردت (إيمان) لعابها مرة أخرى ، وقالت بنفس الصوت المرتجف الخافت :

- وهل توافقين على خطبته لك ؟

حدَجتْها (ناهد) بنظرة طويلة ، قبل أن تتراجع فى مقعدها ، وتقول فى هدوء :

- هل كلفك سؤالى ؟

خفضت (إيمان) عينيها ، وهى تغمغم فى ألم :

- نعم .

ساد الصمت لحظة ، ثم قالت (ناهد) فى هدوء :

- (منير) شاب لا بأس به .

لم تدر (إيمان) لِمَ استنكرت هذا القول ، إلى هذا الحد ! ! ..

لقد كادت تهتف أن (منير) شاب رائع ، وليس مجرد شاب لا بأس به ..

لقد استنكرت مجرد هدوء (ناهد) وهى تنطق هذه العبارة ..

ولكن نفسها صرخت فجأة : ولماذا تنبهر (ناهد) بـ (منير) ، كما بهَرَها هى ؟ ..

إنها فتاة دميمة ، قبيحة ، يبهرها كثيراً أن يتعلق بها شاب وسيم مثل (منير) ..

أما (ناهد) فهى فتاة جميلة .. بل فاتنة ، ومن الطبيعى أن يتعلق بها العشرات ممن يفوقون (منير) وسامة وثراء ..

كانت تلك الفكرة تعصف بنفسها ، حينما استطردت (ناهد) بنفس الهدوء :

- إنه وسيم الطلعة ، مهذب ، من أسرة ثرية ، بالإضافة إلى أنه طالب متفوِّق فى السنة النهائية ..

ثم صمتت لحظة ، وكأنها تدرس كل تلك المميزات فى رأسها ، قبل أن تردف فى هدوء ، وهى تبتسم ابتسامة واثقة :

– نعم .. إننى أوافق على أن يتقدم (منير) لخطبتى .

ولم يصدق (منير) أذنيه ، حينما أعادت (إيمان) على مسامعه ذلك الحديث ..

لقد كاد يجن من شدة فرحه ، وتهللت أساريره كلها ، وهو يهتف فى سعادة :

– أحقًا يا (إيمان) ؟ .. أوافقت على خطبتى لها حقًا ؟

أومأت (إيمان) برأسها إيجاباً ، وقد أورثتها سعادته ولهفته مزيداً من الألم والمرارة ، فتناول كفها فى راحته وهو يهتف فى امتنان :

– شكراً يا (إيمان) .. شكراً يا أعز صديقة فى الوجود .

ثم ترك كفها ، وأسرع إلى حجرة الجوّالة ليلتقى بمحبوبته ، وتركها تغمغم فى مرارة :

– أعز صديقة فى الوجود ؟! ..

والتقطت حقيبتها الصغيرة ، وسارت فى خطوات بطيئة نحو بوابة الكلية ، وتركت دمعة ساخنة تنحدر على وجنتها ، وهى تتمتم فى صوت غير مسموع :

– الصداقة .. الصداقة فقط .. ليس من حقك أن تحبى يا (إيمان) .

وشعرت وهى تغادر الكلية أنها قد أوصدت باب قلبها إلى الأبد ، وأنها قد عادت إلى حياتها السابقة ، ذات الشخصيتين المتناقضتين ..

عادت ولن تتراجع أبداً ..

* * *



٤ ـ الطريق الطويل ..

كان حفل خطبة (منير) و (ناهد) جميلا أنيقاً ، تنم كل لمحة فيه عن الثراء وحسن الذوق ..

كانت (ناهد) فاتنة ، ساحرة ، وكان (منير) وسيماً رائعاً ..

وكانت (إيمان) من بين المدعوات إلى الحفل ..

لقد أصرَّ (منير) و (ناهد) على حضورها ، بصفتها صاحبة الفضل فى ارتباطهما ، ولقد تردَّدت فى الحضور طويلا ، ثم لم تلبث أن أنَّبتْ نفسها على تردُّدها وقررت الحضور ..

إن تردُّدها يعنى أنها مازالت تحب (منير) ، وهى ترفض أن تعترف بذلك ..

وحضرت الحفل ..

حضرت لتثبت لنفسها أنه لم يعد يعنيها ..

ولكنها شعرت بالغيْرَة حينما رأتهما معاً ، وحينما وضع (منير) خاتم الخطبة فى إصبع (ناهد) ..

وانزوت فى ركن من قاعة الحفل ، تتأمل الخطيبين وتتخيل نفسها إلى جوار (منير) بدلا من (ناهد) ..

تخيلته وهو يضع دبلته الذهبية فى إصبعها هى ..

بل شعرت بالدبلة تحيط إصبعها بالفعل ..

ثم لم تلبث أن نفضت كل ذلك ، وأسرعت تهنىء (منير) و (ناهد) فى حرارة مصطنعة ، وقد أعادت إلى وجهها ذلك القناع التقليدى المرح ، ولكنها لم تحتمل البقاء فى الحفل طويلا بعد ذلك ، فأسرعت تغادره إلى منزلها ..

كان الطريق بين فيلا والد (ناهد) ، حيث أقيم الحفل ، ومنزلها طويلا ، ولكنها – على الرغم من ذلك – قطعته سيراً على الأقدام ، دون أن تشعر ..

لم تشعر إلا بعد أن وصلت إلى منزلها ، بعد ساعتين كاملتين ، فاتجهت إلى حجرتها ، وخلعت حذاءها ، وتمدَّدت فوق فراشها تسترجع كل الأحداث ..

وتصارعت فى عينيها دمعة حزينة ، تجاهد للفرار ، إلا أنها قاومتها بكل ما تملك من الصلابة والعناد ، حتى

وأدتها فى مهدها وأغلقت عينيها ، علها تنجح فى خداع جسدها ، فيستسلم لنعاس طويل ..

ولكن هيهات ..

كانت مشاهد الحفل تنساب إلى عقلها ، على الرغم من محاولاتها المضنية لمقاومة ذلك ، وتتداعى ذكرياتها لتعود بها إلى تلك اللحظة ، التى ربتت فيها (منير) على كتفها ، حينما جلست تبكى وحدها فى حديقة الكلية ..

عشرات المشاهد والذكريات تتداعى إلى رأسها ، فى إصرار وعناد ، والليل يمضى فى بطء ثقيل ، وهى تصارع الأرق والألم ..

حتى أشرق الصباح ..

ومع إشراقته أشرق الطريق أمام عقل (إيمان) ..

إن الحياة لم تنته لمجرد أنها فشلت فى أول قصة حب لها ..

لقد كان من الطبيعى أن تفشل ..

الدميات أمثالها لا يحق لهن أن يستسلمن للحب ..

فليكن هدفها فى الحياة بعيداً عن الحب والزواج ..

فليكن هدفها هو التفوق والنجاح ..

ستضع كل آمالها فى دراستها ومستقبلها ..

ولن تلتفت مرة أخرى إلى أية عاطفة ..

فلتكن تجربتها هذه درساً كافياً لها ..

من الآن فصاعداً حذارِ من الحب ..

حذارِ من كل ما يمكنه أن يفسد نجاحها وتفوُّقها ..

وفى تلك الليلة قررت أن تمضى فى الطريق الذى اختارته لنفسها ..

مهما كان طويلا قاسياً ..

ومهما كانت وحيدة منفردة ..

واتخذت قرارها ..

وفى ذلك العام نجحت بتفوُّق ..

وكذلك فى العام التالى ..

لم تتوقف لحظة لتلتفت خلفها ، وهى تمضى قُدُماً فى طريقها الطويل ..

لم تتوقف حتى حينما تزوج (منير) و (ناهد) ..

إنها حتى لم تشعر بالغيرة فى حفل زفافهما ، الذى أصرّت على حضوره ..

ولا حينما أنجبا طفلة جميلة فى نهاية العام الثانى ..

لقد أوصدت قلبها ، ولم تعد تبالى بـ (منير) أو بغيره ..

وحصلت على بكالوريوس الطب بتفوق . وامتلأ قلبها بسعادة حقيقية حينما حصلت عليه ، وامتزجت سعادتها بفرحة عائلتها ، فتحوّل يوم نجاحها إلى عيد كبير ، أنساها كل آلام الماضى ..

وأصبحت (إيمان) طبيبة ..

ولقد أثبتت صلاحيتها لتلك المهنة منذ أيامها الأولى فى فترة الامتياز ..

تلك المرحلة الإجبارية ، التى لابد لكل طبيب من اجتيازها بنجاح ، قبل أن يحصل على الترخيص اللازم لمزاولة مهنة الطب ..

تلك الفترة التى يتنقل فيها طبيب الامتياز بين أقسام وفروع الطب المختلفة ، ليكتسب الخبرة العملية اللازمة

قبل أن يواجه الحياة وحده ، كطبيب ممارس ..

ولقد أفرغت (إيمان) كل الحب والحنان ، اللذين يمتلئ بهما قلبها فى أسرّة المرضى ، فأسرفت فى رعايتهم والاهتمام بهم ، ومنحهم كل وقتها وعنايتها ، حتى صارت مثار إعجاب العاملين فى المستشفى الجامعى كله.

تماماً كما كانت فى الكلية ..

مثار إعجاب ، وليس مثار حب ..

هى نفسها لم تعد تفكر فى الحب ، أو تنتظره ..

لقد صار بالنسبة إليها عائقاً تتحاشاه وتخشاه ..

ولكن الحب نفسه لم يخشها ، أو يتحاشاها ..

لقد أصرَّ على اقتحام حياتها مرة أخرى ، دون أن يبالى برغباتها ..

كان ذلك حينما انتقلت للعمل فى مستشفى الحميات .

لقد كان معظم أطباء الامتياز يتحاشون العمل فى هذا المستشفى بالذات ، لما يزخر به من مرضى يحملون أمراضاً معدية ، مخيفة ..

ولكنها لم تبال بذلك ..

كانت تسعى دَوْماً للاستزادة من الخبرات والمهارات ، دون أن تلتفت إلى العواقب والمعوقات .

حتى أمها شعرت بالخوف والقلق ، حينما علمت أنها ستنتقل إلى مستشفى الحميات ، فضربت صدرها بكفها ، وهى تهتف فى جزع :

— الحميات ؟! .. ولكنه مكان موبوء يا (إيمان) أخشى أن تصيبك فيه الأمراض .

ضحكت وهى تقول :

— رُوَيْدَكِ يا أمى .. عشرات الأطباء يعملون فى مستشفيات الحميات ، ومن النادر أن يصاب أحدهم بالعدْوَى . وسأعمل هناك لشهرين فقط .

غمغمت أمها فى سخط :

— ومن أدرانى أنك لن تكونى من هذه الندرة ؟

ضحكت مرة أخرى ، وهى تقول :

— اطمئنى يا أماه ، يبدو أن الميكروبات المعدية تخشى الأطباء ، فلا تنتقل إليهم فى مثل هذه المستشفيات .

لم يكفِ مرحها لإخماد قلق أمها ، ولكنها لم تهتم ،

وذهبت إلى المستشفى وهى تمتلىء بالحماس ، وبدأت عملها هناك بنشاط يثير الإعجاب ..

كانت تنتقل بين حجرات المرضى وأسِرَّتهم ، توزِّع عليهم اهتمامها ورعايتها ، وابتسامتها الصافية دون كلل أو ملل ، حتى صارت صورة لملاك الرحمة فى عيونهم ..

وذات ليلة ، وخلال عملها فى نَوْبَة ليلية ، تقدمت نحو أحد المرضى ، وراجعت البطاقة المثبتة بسريره ، ثم قالت للممرضة المرافقة لها فى صرامة :

— هذا المريض يحتاج إلى لتر من المحاليل .

أجابتها الممرضة فى هدوء :

— لم يأمر الدكتور (فتحى) بذلك .

صاحت فى وجهها فى حزم :

— لقد أمرت أنا بذلك .. إنه يحتاج إلى المحاليل على وجه السرعة .

لم تحرِّك الممرضة ساكناً ، وهى تكرر فى برود :

— لم يأمر الدكتور (فتحى) بذلك .. إنها حالته .

صاحت (إيمان) فى عصبية :

حالته أو حالتى .. هذا لايهم .. المهم أن يحصل المريض على المحاليل اللازمة .

جاءت الإجابة هذه المرة من صوت عميق هادئ . يقول فى برود :

- إنه لا يحتاج إلى أية محاليل يا دكتورة .

التفتت (إيمان) إلى مصدر الصوت فى حِدَّة ، وكادت تشتبك مع صاحبه فى مشادَّة كلامية ، فى محاولة لتأكيد رأيها ، إلا أن الكلمات احتبست فى حلقها حينما طالعتها عينا الدكتور (فتحى) العسليَّتان الصارمتان وهو يستند بكتفه إلى باب الحجرة ، ويعقد ساعديه أمام صدره فى هدوء ..

كان وسيماً ، جذَّاباً ، قوىّ البنيان ، تبدو الثقة واضحة فى ابتسامته الهادئة وهو يستطرد :

- أنا الدكتور (فتحى) ، الذى تتحدث عنه الممرضة ، وأكرر أن هذا المريض لا يحتاج لأى نوع من المحاليل .

ظلت (إيمان) تتطلع إلى ملامحه لحظة فى شرود ، دون أن تدرى أى شىء جذبها إليه إلى هذا الحد ، ثم أفاقت من شرودها ، فعقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حِدَّة :

- لا .. إنه يحتاج إلى المحاليل و ..

أوقفها بإشارة صارمة من يده ، ولاح الغضب فى قسماته ، وهو يقول فى حزم :

- ليس هنا يا دكتورة ..سأنتظرك فى حجرة مكتبي ، لنناقش هذا الأمر .

ودون أن ينتظر جوابها ، استدار يغادر الحجرة فى خطوات واسعة ، وتناهى صوت أقدامه وهى تبتعد إلى مسامع (إيمان) ، التى هتفت فى حنَق :

- ألحق به إلى مكتبه ؟! .. من يظن نفسه ؟

أجابتها الممرضة بنفس الهدوء ، الذى يقترب من حد البرود :

- إنه الدكتور (فتحى صادق) ، نائب مدير المستشفى .

هتفت (إيمان) فى استنكار :

- نائب المدير ؟! .. ولكنه لا يتجاوز الثلاثين .

هزّت الممرضة كتفيها فى برود ، وهى تقول :

- إنه منصب إدارىّ يحتاج إلى الصرامة والحُنكة والصبر والتفهم ، وهو يمتلك كل هذه الصفات .

مطت (إيمان) شفتيها فى استنكار ، وهى تغمغم :

- هراء .. إنه مجرد طبيب مغرور .

ابتسمت الممرضة فى خبث ، وهى تقول :

- رُبَّما ..

عقدت (إيمان) حاجبيها فى غضب ، وهى تقول :

- وأين مكتبه هذا ؟

أشارت الممرضة بيدها إشارة واهية ، وهى تتمتم :

- آخر حجرة إلى اليمين ، فى نهاية الممر .

رفعت (إيمان) رأسها فى اعتداد ، واتجهت فى خطوات سريعة إلى مكتب الدكتور (فتحى) ، وقرعت الباب فى رفق ، ثم دفعته دون أن تنتظر جواباً ، وكأنما تعلن عن تحديها له منذ اللحظة الأولى ، ولكنه لم يبال ..

فقط رفع عينيه فى هدوء عن الكتاب الذى يطالعه وقال فى لهجة آمرة صارمة :

- اجلسى .

أرادت أن تعترض على لهجته الجافة الآمرة ..

أرادت أن ترفض دعوته لها للجلوس ..

ولكن شيئاً ما فى عينيه الصارمتين ، أو فى لهجته الآمرة ، أو فى أعماقها هى ، جعلها تنصاع لأمره ..

وجلست ..

وكانت البداية ..

* * *



٥ ـ حذار يا قلب ..

مرّت لحظات طويلة من الصمت ، و (إيمان) تتطلع إلى (فتحى) ، الذى انهمك فى مطالعة الكتاب الضخم فوق مكتبه ، دون أن يرفع عينيه إليها لحظة واحدة . حتى خامرها شعور قوى بالسخط ، وقد تصورت أنه يتعمد تجاهلها ، حتى يحطّم عنادها منذ اللحظة الأولى ، فزفرت فى حنَق ، وهى تقول فى لهجة حادّة :

ـ هأنذا فى مكتبك ، ماذا تريد ؟

أشار إليها بسبابته ، وقال دون أن يرفع عينيه عن صفحات الكتاب :

ـ لحظة واحدة يا دكتورة .

شعرت بالغضب يجتاح نفسها ، لتعمده منحها ذلك الشعور بالضآلة ، فصاحت فى عصبية ، وهى تنهض واقفة فى حدة :

ـ كلاّ .. لن أنتظر لحظة واحدة ، ولا حتى ثانية واحدة ، أخبرنى ماذا تريد منى أو أنصرف فوراً .

تطلع إليها فى هدوء ، ثم ابتسم وهو يقول :

ـ هكذا ؟! ..

تصاعدت دماء الغضب إلى رأسها ، وحدَجتْه بنظرة نارية ، ثم استدارت فى عصبية تزمع الانصراف إلا أنه قال فى هدوء شديد :

ـ لحظة يا آنسة .

استدارت إليه وهى ترفع رأسها فى اعتداد ، وكأنها تنتظر اعتذاره ، إلا أنه استطرد فى هدوء :

ـ ليس من اللائق أن تنصرفى هكذا .

اتسعت عيناها ، وهى تهتف فى مزيج من الغضب والاستنكار :

ـ ليس من اللائق ؟!

أومأ برأسه إيجاباً ، وهو يقول فى هدوء :

ـ نعم .. وهو رابع عمل غير لائق تقدمين عليه ، فى وقت قصير .

تحوّل غضبها واستنكارها إلى نوع من الدهشة والحيرة ، وهى تغمغم :

ـ رابع عمل ؟!

عاد يومئ برأسه إيجاباً ، وهو يقول :

— بالطبع .. لم يكن من اللائق أن تتدخلى فى علاج حالة تخصنى ، ولم يكن من اللائق أن تجادلى أسلوب علاجى فى عصبية ، ولم يكن من اللائق أن يحدث هذا الجدل أمام المريض ، حتى لا يبعث فى نفسه الشك فى أسلوب علاجه ، وانصرافك الآن ، على هذا النحو ، هو رابع عمل غير لائق .

امتزج غضبها ودهشتها بالخجل ، حينما تبينت أنه على حق فى انتقاده لها ، وأن حماسها للعمل واكتساب الخبرات قد أنساها بعض قواعد اللياقة ، إلا أن عنادها أبى عليها أن تعترف بذلك ، فقالت فى عصبية :

— أتتحدث عن اللياقة ؟!.. وهل كان من اللائق أن تتعمد تجاهلى ، وتتظاهر بالانهماك فى القراءة ، فى محاولة لإذلالى و .. ؟

قاطعها فى دهشة :

— إذلالك ؟! .. كيف تصورت ذلك ؟ .. إن هذا لم يخطر ببالى قط !

ثم التقط الكتاب ، الذى كان ينهمك فى مطالعته ، ومدّ يده به إليها ، مستطرداً :

— لقد كنت أحاول فقط حسم خلافنا على نحو عملى علمى .

غمغمت فى حيرة :

— ماذا تعنى ؟

أشار إلى فقرة فى الكتاب ، وهو يقول فى أسف :

— لقد رأيت أنت أنه من الضرورى أن يحصل المريض على بعض المحاليل ، ورأيت أنا العكس ، ومن غير المجدى أن نناقش هذا الخلاف فى عصبية ، ولقد وجدت أنه من المنطق أن يحسم ذلك المرجع الطبى خلافنا ، وهو أحدث المراجع فى علم الأمراض المعدية ، وتؤكد آخر الأبحاث فيه ضرورة عدم إعطاء هؤلاء المرضى أية محاليل ، وإلا أصابهم رشح رئوى . يمكنك التأكد من ذلك .

تصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، وغمغمت فى حياء :

— لم أكن أعلم ذلك .
هزَّ كتفيه فى هدوء وهو يقول فى بساطة :
— كان ينبغى أن تسألى أولاً .
تضاعف خجلها ، وخفضت عينيها أرضاً ، وهى تغمغم :
— هذا صحيح .. لقد أخطأت .. أنا ..
قاطعها فى حنان أدهشها :
— لست أطلب اعتذاراً يا دكتورة .. إنك لست هنا لممارسة المهنة ، وإنما لاكتساب الخبرة اللازمة لذلك ، ومن حقك أن تخطئ ، كما أنه من واجبى أن أعاونك على الوصول إلى الصواب ، وهذا كل شىء .
كان حديثه دافئاً ، حنوناً ، هادئاً ، حتى أنها لم تستطع منع نفسها من التطلع إلى وجهه فى حيْرَة ، وأدهشتها ابتسامته الودود ، التى بدت وكأنها بدّلت ملامحه كلها ، وجعلته أكثر وسامة وجاذبيّة ، وبدا لها صوته كنهر من الحنان ، وهو يستطرد :
— أرجو ألا يتكرر هذا الخطأ مرة ثانية .

سرَت ارتجافة عجيبة فى جسدها ، وهى تتطلع إلى عينيه مباشرة ، وغمغمت فى شرود :
— لن يتكرر .
عاد يسألها بنفس الهدوء والحنان :
— أهو وَعْد ؟
أجابته :
— نعم .
تنهَّد فى ارتياح ، واتسعت ابتسامته ، وازدادت عُذوبةً ، وهو يقول :
— يؤسفنى أننا لم نلتق إلا فى ظل هذه الظروف ، فقد عدت من إجازتى السنوية اليوم فقط ، ولكن من الواضح أنك تمتلئين بالنشاط والإخلاص فى العمل ، والرغبة فى التفوُّق والنجاح .
ثم مدّ كفه إليها ، وهو يستطرد فى هدوء :
— تسعدنى معرفتك يا دكتورة ..
أسرعت تقول فى لهفة :
— (إيمان) .

بدت ابتسامته رائعة ، خلابة ، وهو يقول : .

– تسعدنى معرفتك يا آنسة (إيمان) .

وصافحته ..

بل ألقت كفها بين أصابعه فى لهفة ..

وارتجف جسدها كله ..

ارتجف من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ..

ارتجف ارتجافة عذبة ، ناعمة ، لذيذة ..

ارتجافة لم تفارق كيانها ، حتى عادت إلى منزلها فى الصباح التالى ، بعد انتهاء نوبتها الليلية ..

وأدهشها أن قلبها كان يختلج اختلاجة بدت كذكرى بعيدة ..

اختلاجة عاطفة قوية ..

واستلقت على فراشها فى منزلها ، تسترجع كل حوارها معه ..

كل جملة ..

كل كلمة ..

كل حرف ..

واستعاد ذهنها صورته ..

وسامته ..

حنـــانه ..

أســـلوبه ..

رصانتـــه ..

هـــدوءه ..

ثقته واعتداده بنفسه ..

ووجدت نفسها تغمغم فى هيام :

– يا له من رجـل ! ! إنه فارس أحلام أية فتاة فى الكون ! !

وفجأة اقتحمت بستان خيالها عاصفة من الأشواك ..

موجة عاتية من الذكريات المؤلمة أطاحت بكل شىء ..

(منير) ..

حبها له ..

صدمتها ..

دمامتها ..

قبحهـــا ..

وتحولت تلك العاصفة إلى نهر من الدموع ، تدفّق من عينيها ، وهى تستطرد فى صوت مختنق :

– أية فتاة فى الكون .. إلا أنا ..

وصرخ قلبها : اعترفى يا (إيمان) ..

لقد وجدت فى (فتحى) فارس أحلامك ..

لقد أحببته ..

وهتفت هى فى مرارة :

– لن أعترف .. لن أحب مرة أخرى .. لن أقع فى نفس الخطإ مرتين ..

لن أفعل أبداً ..

وتحوّل هتافها إلى أنين بائس ، وهى تتمتم :

– لن أحب .. مثلى لا يحب .

ودفنت وجهها فى وسادتها ، وتركت نهر دموعها يغمر كل شىء ..

* * *

٦ – نبض الحب ..

استيقظت (إيمان) فى اليوم التالى ، وهى تشعر بصداع شديد ، وإرهاق يشمل جسدها كله ، من كثرة ما بكت ، وأنهكت عقلها بالأفكار والعذاب ، ولم تكد أمها تلمح شحوب وجهها وذبول عينيها ، حتى هتفت فى جزع وانزعاج :

– (إيمان) ؟! .. ماذا بك ؟ .. أأنت مريضة ؟

غمغمت (إيمان) فى ضجر :

– لا يا أماه .. إنه بعض الإرهاق فحسب .

صاحت الأم فى لوعة واستنكار :

– بعض الإرهاق ؟! .. إنك منهكة تماماً .

أشاحت (إيمان) بوجهها ، وهى تقول :

– لا تبالغى يا أماه .

ضمتها الأم إلى صدرها فى لوعة ، وهى تغمغم فى إشفاق :

– أبالغ ؟! .. يا إلهى ! .. ألم ترى وجهك فى

المرآة يا (إيمان) ؟ .. إنك ذابلة تماماً يابنتى .. من الأفضل ألا تذهبى إلى عملك اليوم .

ابتسمت (إيمان) ابتسامة شاحبة ، تزخر بالمرارة ، وهى تغمغم :

– لا تقلقى يا أماه .. العمل أفضل فى مثل حالتى .

كانت تؤمن تماماً بكل حرف من حروف عبارتها الأخيرة ..

كان الحل الذى استقر إليه عقلها ، هو أن تقاوم اهتمامها بـ (فتحى) بالانغماس فى العمل ..

إنها تحتاج إلى ما يملأ كل وقتها ، حتى لا ينشغل عقلها بتلك العواطف ، التى عقدَتِ العزم منذ سنوات على تجاهلها ..

ولن تتخلى عن عزمها لمجرد أن (فتحى) أثار إعجابها ..

تجمدت أفكارها عند هذه النقطة ، وهى تجذب مقعداً ، وتجلس إلى مائدة الإفطار ، وتصب لنفسها كوباً من الشاى ، لترتشفه فى بطء كعادتها ، وبدأ عقلها يلقى سؤالاً جديداً ..

أهو حقاً مجرد إعجاب ؟ ..

هل يخفق القلب على هذا النحو ، للإعجاب فقط ؟؟

كاد قلبها يعترف بأن الأمر يتعدَّى حدود الإعجاب ، وأنه فى الواقع حب ..

حب حقيق ..

إلا أن عقلها اعترض على قلبها ، قائلا :

– أى حب هذا ؟ .. إنك لم تخفق له إلا أمس فقط ، ولم تكن حتى تعرفه قبل ذلك .

كان من الضرورىّ أن يحتدم الجدل بين عقلها وقلبها ، حينما أجاب ذلك الأخير فى إصرار :

– بل هو حب ، وأنا أكثر من يعلم كيف يكون خفقان الحب .

– الحب لا ينشأ بهذه السرعة .

– ولا يحتاج إلى سنوات ، حتى أخفق له على هذا النحو .

– أنا لا أومن بالحب من أول نظرة .

– ولا أنا .

– هل رأيت ؟ .. إنك تعترف بخطئك .

– محال .. أنت الذى لم تفهمنى .

– ألم تقل إنك لا تؤمن بالحب من أول نظرة ؟

– هذا صحيح ، ولكننى أومن بالحب من أول لقاء .

– يا لك من متحذلق ! ! وما الفارق ؟

– الفارق كبير للغاية ، فالإنسان لا يبدأ فى الحب حينما يقع بصره على من يحب ، بل إن الحب هو نتاج حياة بأكملها ، فالأنثى حينما تضع قدميها على أول درجات الأنوثة والنضج ، تبدأ فى تكوين صورة متكاملة لما يسمى بـ (فارس الأحلام) ، وهذه الصورة تتبدّل ، وتتحوّر ، وتتطوّر مع مراحل نضجها المختلفة ، حتى تتبلوَر ، وتتّخذ ذلك الشكل الذى يستقر فى عقلها الباطن ، وتظل تبحث عنه طوال الوقت ، دون أن يدرى حتى عقلها الواعى بذلك ، وهذا يختلف من أنثى إلى أخرى ، فقد يكون (فارس الأحلام) بالنسبة لواحدة ، مجرد صورة شكلية ، تجمع بين الوسامة والملاحة ، دون أن تتوغل فى السمات والصفات ، وقد

يكون بالنسبة لأخرى مجموعة من الطبائع ، التى تتمنى وجودها فى زوج المستقبل ، الذى سيتعايش معها دوماً ، وفى الحالة الأولى تكون الصورة باهتة ، سخيفة ، وتنطبق عليها نظرية (الحب من أول نظرة) ، وهى النظرية التى أرفضها تماماً ، فهى تشبه ما يحدث فى عالم الحشرات ، حينما تنجذب فراشة رقيقة إلى نبات جميل المظهر ، ثم لا تلبث أن تكشف بعد فوات الأوان ، أن جمال مظهره لم يكن سوى خداع لاجتذابها ، والإطباق عليها ، والتهامها بلا رحمة أو شفقة ، أما فى الحالة الثانية ، فالحب يأتى من أول لقاء ، حينما تتضح صفات الشخص ، وتتوافق مع صفات (فارس الأحلام) ، وفى هذه الحالة يكون الانجذاب لصورة مدروسة مسبقاً ، ولأمر عاش فى الوجدان سنوات طوالاً ، وليس وليد لحظة متسرعة .

– رُوَيْدَكَ أيها القلب .. إنك تتخلّى عن وظيفتك ، وتحتل وظيفتى أنا .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أننى أنا العقل ، والكلام المنطقى الموزون

لابد أن ينبع منى ، أما أنت فقلب ينبض بالعاطفة ، ومن المفروض ألا يفكر بأى منطق .

— عجباً ! ! .. أنسيت يا صديقى أننا نحيا فى جسد واحد ، وأننا نتغذى من دماء واحدة .. بل إننى أنا الذى يمدك بالدم النقى ، ويخلصك من الدم الفاسد ، ومن الطبيعى أن أحمل بعضاً من صفاتك ، وتحمل بعضاً من صفاتى .

— حسناً .. حسناً .. أنت تؤمن إذن بأن ذلك الشعور الذى تحمله ليس مجرد إعجاب بل هو حب حقيقى ! ..

— بلا أدنى شك .

— ولكننى أرفض هذا الشعور .

— هذا من حقك ، ولكن من المستحيل أن تجبرنى على التخلى عنه .

— سنرى ..

— نعم أيها العقل .. سنرى ..

كان من الممكن أن يمتد ذلك الحوار ، بين العقل والقلب ، إلى ما لا نهاية ، لولا أن قطعته والدة (إيمان) ، وهى تقول لابنتها فى حنان دافق :

— (إيمان) .

توقفت (إيمان) عن ارتشاف كوب الشاى ، والتفتت إلى أمها فى هدوء ، ولكن ذلك الهدوء لم يلبث أن تحوَّل إلى قلق شديد ، حينما طالعتها ابتسامة الأم المشفقة الحنون ، وهى تغمغم فى حب :

— هل تعلمين أننا وحدنا فى المنزل يا (إيمان) ؟ .. لقد ذهب شقيقك إلى كليته مبكراً ، وغادرنا أبوك إلى عمله .

غمغمت (إيمان) ، وهى تتظاهر بعدم الفهم :

— وماذا يعنى ذلك ؟

تأملتها الأم فى حنان ، قبل أن تقول فى خفوت :

— يعنى أنه يمكننا التحدث فى صراحة يابنيَّتى .

ارتفعت نبضات قلب (إيمان) وهى تتمتم فى همس :

— لست أفهم .

لم تترك لها الأم فرصة المراوغة ، فسألتها بغتة :

— هل تحبين يا (إيمان) ؟

ارتجف جسد (إيمان) ارتجافة واضحة جليَّة ،

وكادت بقايا كوب الشاى تنسكب على المائدة ، واتسعت عينا (إيمان) ، وهى تهتف فى عصبية وجزع :

– أحب ؟! .. ما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة يا أماه ؟

ربَّتت الأم على كتف ابنتها النحيلة فى حنان غامر ، وهى تقول :

– كل شىء فيك يوحى بذلك يا (إيمان) .. شحوبك .. ذبولك .. شرودك .. كل شىء يا بنيتى .

خُيِّل إليها فى تلك اللحظة أن أمها قد تسللت إلى عقلها وقلبها ، وقرأت المسطور عليهما فى سلاسة ووضوح ، فتراجعت فى مقعدها ، وهى تغمغم فى توتُّر وشحوب :

– إنه إيحاء كاذب يا أماه .

اقتربت الأم منها ، وهى تقول فى همس حنون :

– أأنت واثقة يا (إيمان) ؟

نهضت من مقعدها فى حدة ، وهى تقول فى عصبية :

– كل الثقة يا أماه .

ثم انطلقت إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى حِدَّة ، فارتفع حاجبا الأم فى حنان وإشفاق ، وهى تغمغم :

– بل هو حب يا بنيتى .. لقد أجاب رفضك بالإيجاب .

ورفعت عينيها إلى أعلى ، مستطردة فى ضراعة :

– امنحها الخير !! كل الخير يا إله الكون !!

أما (إيمان) فقد أحنقها قول أمها فى شدة ، فأخذت ترتدى ثوبها فى عصبية ، وهى تغمغم فى عناد :

– لا .. إنه ليس حبًّا .. ليس حبًّا .

ولكنها ضبطت نفسها ، وهى تولى زينتها مزيداً من العناية فى ذلك الصباح بالذات ، فعقدت حاجبيها ، وهى تقول لنفسها فى توتُّر :

– إنما أفعل ذلك لنفسى ، وليس له .. أو لأى رجل آخر فى العالم .

وحرَصَت أشدَّ الحِرص على أن تؤكد لنفسها هذا المعنى ، وهى تستقل الحافلة المزدحمة إلى محل عملها ،

ولكنها لم تكد تهبط منها أمام المستشفى ، حتى أخذت تعدل ثوبها فى اهتمام ، وتراجع تصفيفة شعرها الجميل فى حركة غريزية ، قبل أن تندفع داخل المستشفى بخطوات واسعة معتدَّة ..

وغافلتها عيناها ، فأخذتا تبحثان فى لهفة وشغف عن الدكتور (فتحى) ، فى حديقة المستشفى وأروقتها ، حتى انتبهت إلى ذلك ، فعقدت حاجبيها فى حنَق ، وهى تغمغم ساخطة :

— كلاّ يا (إيمان) .. حذارِ أن تلقى بنفسك وسط العاصفة مرة أخرى .

وزادت من سرعة خطواتها ، وكأنها تحاول إلهاء عينيها ، حتى وصلت إلى حجرة مدير المستشفى ، الذى حيَّاها بابتسامة ودود ، وهو يدفع إليها بدفتر الحضور والانصراف ، فأضافت إليه توقيعها ، وأسرعت تغادر الحجرة فى عجلة ..

ولكنها فوجئت به أمامها ..

تسمَّرت قدماها ، وتحجرت عيناها وهى تتطلَّع

إلى (فتحى) ، الذى وقف أمامها بوسامته ، ورصانته ، وابتسامته العذبة ، وسرَت فى جسدها قشعريرة باردة ، حينما قال فى هدوء باسم :

— صباح الخير يا دكتورة (إيمان) .. لقد شفى .

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن تسأله فى صوت مختنق :

— شفى ؟! .. من تقصد ؟

أجابها فى هدوء ، ودون أن تفارق ابتسامته شفتيه :

— مريضنا المشترك .. لقد شفى وغادر المستشفى .

ثم أردف فى مرح :

— دون تحاليل .

وشعرت بقلبها ينبض فى قوَّة ، وهى تتطلَّع إلى وجهه الوسيم ، ولم تدر أن قلبها نفسه كان يهتف فى تلك اللحظة ، فى لهجة ظافرة فرحة :

— هل رأيت أيها العقل ؟ .. لا يمكنك أن تخطئ هذا النبض .. إنه نبض الحب ..

* * *

٧ - الصـــراع ..

ران الصمت والسكون طويلا ، و (إيمان) تتطلّع إلى (فتحى) فى دهشة وتوتُّر ، وحيْرَة ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وقد بدأ عقلها يصارعها بأسئلة قاسية متوالية ..

ماذا بك يا (إيمان) ؟ ..

ماذا أصابك ؟ ..

لم تثلّجت أطرافك ، وأنت تتطلعين إليه هكذا ؟

لم يرتجف قلبك على هذا النحو ؟ ..

قاومى يا (إيمان) ..

قاومى ذلك الشعور الذى يجاهد لاحتلال قلبك ..

لا تنهارى هكذا ، لمجرد أنك تقفين أمامه ..

إنه لا يعنى لك إلا مجرد كونه زميلا فى المستشفى ..

لا تتسمَّرى هكذا ..

وهنا ألقى قلبها بنفسه وسط الصراع ، وكأنما يخشى أن يخسر معركته ..

وراحت كلماته تصارع بدَوْرها ..

لا تخدعى نفسك يا (إيمان) ..

لا تنكرى عواطفك ..

لا تقتلى مشاعرك ..

إنه ليس مجرد زميل ..

لماذا كنت تخشين مقابلته إذن ، لو أنه كذلك ؟ ..

لماذا ارتجفت ، وتسمَّرت ، وتصلَّبتِ حينما رأيته؟

إنك تحبينه يا (إيمان) ..

تحبينـــه !!

تحبينـــه !!

وجدت نفسها تغمغم فجأة فى حِدَّة :

— كلاً .. كلاً .

أيقظتهـا نظرة الدهشـة ، التى ارتسمت فى عينى (فتحى) ، وأخمدت ذلك الصراع بين عقلها وقلبها ، وهو يغمغم فى حيْرَة :

— ماذا تقولين يا دكتورة (إيمان) ؟

ارتجفت وهى تتطلع إليه فى ذعر ، وقد خيِّل إليها

أنها قد فضحت مشاعرها بتلك الكلمة ، التى أفلتت من بين شفتيها ، ولم تجد أمامها سوى أن تتشبث بذلك القناع المرح ، الذى يخفى دوماً ما يجول بأعماقها .

فرسمت على شفتيها ابتسامة مرحة ، تطلبت منها هذه المرة جهداً خرافياً ، وهى تقول :

- إذن فقد شفى المريض !! .. كم يسعدنى ذلك!

تأملها بنظرة فاحصة مدققة ، جعلتها ترتجف من قمة رأسها ، حتى أخمص قدميها ، قبل أن يسألها فى فضول واهتمام :

- أحقاً يا دكتورة (إيمان) ؟

ارتبكت ، وهى تسأله فى حيرة :

- ماذا تعنى ؟

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن يعاود سؤاله بمزيد من الاهتمام :

- أيسعدك حقاً أنه قد شفى ، على الرغم من أن ذلك يؤكد خطأ أسلوبك فى العلاج ؟

تطلعت إليه فى حيرة ، ثم أجابت :

- بالطبع .. إنها ليست معركة .. لقد أتيت إلى هنا طمعاً فى اكتساب الخبرات ، وهذا يعنى أننى أفتقر إلى الكثير منها ، وليس من العيب أو العار أن أخطئ ، المهم أن أفيد من هذا الخطإ ، والعيب كل العيب أن يدفع المريض ثمن خطئى ، لمجرد أننى أرفض الاعتراف به .

كانت تتحدث فى سرعة وحماس ، حتى أنها أخذت تلهث مع آخر كلماتها ، فى حين بقى (فتحى) يتطلع إليها لحظات ، ثم تألقت ابتسامته العذبة فوق شفتيه ، وهو يغمغم :

- رائع !! هذا رائع !!

تصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، تحت تأثير ذلك البريق الذى انبعث من عينيه ، وشملها كلها ، على حين استطرد هو فى لهجة أدهشتها :

- من النادر أن يجد المرء مخلوقة مثلك يا دكتورة (إيمان) .

وتركها مشدوهة بعبارته الأخيرة ، وابتعد عنها فى

خطوات سريعة ، وهو يدس كفيه فى جيبى معطفه الطبى الأبيض ، حتى اختفى فى حجرة مكتبه ، فتمتمت (إيمان) فى حيْرَة :

– ماذا يقصد ؟

كاد قلبها يضع لعبارته تفسيرات شتَّى ، إلا أن عقلها أسرع يؤكد لها أنها مجاملة عمل فحسب ..

وعلى الرغم من أنها لم تشعر بالارتياح لقول عقلها ، إلا أنها أخمدت صوت قلبها فى صدرها ، وأسرعت ترتدى معطفها الطبى ، وتنهمك فى العمل ، عسى أن تجد فيه المفرّ ..

ولكن مُحال ..

إن صورة (فتحى) لم تفارق خيالها قط ، حتى فى أثناء استغراقها فى عملها ..

كانت ترى ابتسامته فى كل الوجوه ..

فى كل اللمحات ..

فى كل مكان ..

وأخذت تقاوم .. وتقاوم .. وتقاوم ..

ولكنه حطم كل مقاومتها دفعة واحدة ..

كانت قد استغرقت بعض الوقت فى فحص طفل صغير ، وأشرفت بنفسها على إعطائه الأدوية المناسبة لحالته ، ثم ربَّتت على رأسه فى حنان ، واستدارت تغادر حجرته ، حينما فوجئت بـ (فتحى) أمامها ..

كان يستند بكتفه إلى حاجز باب الحجرة كعادته ، وعيناه تراقبانها فى اهتمام عجيب ..

وارتبكت أمام نظراته الفاحصة ..

وانتقل ارتباكها إليه ، فغمغم فى تلعثم ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خجلى :

– لقد كنت أراقبك فحسب .

غمغمت فى خفوت :

– هل أخطأت فى العلاج هذه المرة أيضاً ؟

اتسعت ابتسامته ، وزايلها الخجل ، وهو يجيب :

– بل كنت رائعة .

عاد قلبها يرتجف بين ضلوعها النحيلة ، وهى تخفض عينيها ، وتغمغم فى حياء :

– شكراً لك ..

وعادت تتساءل فى أعماقها :

– ماذا يقصد بعباراته الرقيقة هذه ؟

أهى حقاً مجرد مجاملات صداقة ؟ ..

أم أنها ..

كلا .. كلا .. إنها لن تقع مرة أخرى ضحية لسوء الفهم وتقدير الأمور ..

إنها دميمة ..

لابد أن تذكر ذلك دوماً ، وألا تنساه قط ..

ما من رجل فى هذا العالم يمكنه أن يمنح قلبه لفتاة دميمة ، أو يبادلها الحب ..

الحب للجميلات فقط ..

أو على الأقل للعاديات ..

ولكن ليس لمثلها ..

عليها أن تذكر ذلك دائماً ..

كانت هذه الأفكار تكفى لتستعيد رداءها ، وتتقدم من الباب ، وهى تقول له فى هدوء :

– هل يمكننى أن أنصرف ؟

تنحَّى جانباً ليفسح لها الطريق ، دون أن تفارقها عيناه ، وهى تبتعد عن الحجرة فى خطوات مرتبكة سريعة ، ولم يتسنَّ لها سماع تلك الكلمة التى همس بها لنفسه ، وهى تبتعد فى سرعة ..

لقد همس بكلمة واحدة :

– رائعــــة .

ثم عاد يواصل عمله بنفس الهدوء والرصانة ..

أما هى ، فقد ظلت تتنقل بين حجرات المرضى طيلة اليوم ، وكأنما تخشى أن تخلد للراحة ، فتعود للتفكير فيه دون وعى ..

ومضى اليوم فى بطء شديد ، حتى أنها تنفست الصُّعَداء حينما حانت لحظة الانصراف ، وأسرعت تخلع معطفها ، وتغادر المستشفى كمن يلحق بها شياطين الجحيم ..

ولقد حاولت أن تتشاغل عن التفكير فى هذا الأمر ، طوال طريق عودتها إلى منزلها ، فابتاعت مجلة فنية ، لم يسبق لها مطالعتها قط ، وأرغمت نفسها على

تصفحها ، داخل الحافلة المزدحمة ، التى حملتها إلى منزلها .

ولكن وجه (فتحى) كان يقتحم عليها كل الصفحات ..

كانت تجد عينيه شبيهتين بعينى ذلك النجم السينمائى الوسيم ، الذى تحتل صورته غلاف المجلة ، وقوامه يشبه قوام ذلك النجم الأمريكى الشهير ، وابتسامته تشبه تلك الابتسامة الجذابة ، التى كانت سبباً فى نجاح إعلانات ذلك العطر الثمين .. و .. و .. و .. كل شىء يشبهه ..

أو أن هذا ما بدا لها ..

ووصلت إلى منزلها وصورة (فتحى) تحتل عقلها أكثر من ذى قبل ..

ولم تكد تدلف إلى منزلها حتى اندفعت إليها أمها ، وهى تحمل على شفتيها ابتسامة تفيض فرحاً وسعادة ، وهتفت وهى تحتضنها فى لهفة وحنان :

— (إيمان) .. لقد وصلت فى موعد مناسب تماماً .. أسرعى بوضع بعض طلاء الشفاه ، قبل أن يصل .

عقدت حاجبيها ، وهى تسأل أمها فى دهشة :

— قبل أن يصل ؟! .. من ذلك الذى سيصل يا أماه ؟

تهدَّج صوت الأم ، وهى تقول فى سعادة :

— ستصبحين عروساً يا (إيمان) .. هناك شاب يرغب فى الزواج منك .

هتفت فى مزيج من الدهشة والاستنكار :

— منى أنا ؟!

قالت والدتها فى سعادة وحنان :

— بالطبع يا (إيمان) .. أين سيجد من هى أفضل منك ؟ .. هل نسيت أنك طبيبة ، وأنك ستصبحين أستاذة جامعية بعد بضع سنوات ؟

ابتسمت فى مرارة ، حينما لاحظت أن أمها لم تأت على ذكر الجمال بحرف واحد ، وغمغمت فى لهجة هى مزيج من السخرية والألم :

— وهل هذا يكفيه ؟

صاحت الأم فى حماس :

– بالطبع .

ثم مالت نحو ابنتها ، مستطردة فى همس :

– هيّا .. ضعى بعض (المكياج) ، فسيأتى ذلك الشاب لتناول طعام الغداء معنا ، فهو قريب لجارتنا (سهير) ، وسيكونان هنا بعد أقل من ساعة .

عقدت (إيمان) حاجبيها ، وهى تقول فى حِدّة :

– ومن قال إننى أرغب فى الزواج ؟

ارتبكت الأم ، وذهب حماسها ، وتبخرت سعادتها ، وهى تغمغم فى تلعثم :

– كل البنات يرغبن فى الزواج يا بنيتى ، وهذا الشاب زوج ممتاز ، فهو مهندس ناجح ، يمتلك شركة مقاولات معروفة ، و ..

وبترت عبارتها فجأة ، ثم قالت فى تردُّد :

– أم أنك تحبين شخصاً آخر ؟

أغضبتها عبارة أمها ، فصاحت فى حِدّة :

– قلت لك إننى لا أحب أى مخلوق ، ولكن هذا لا يعنى موافقتى على الزواج :

ران الصمت عليهما لحظة ، ثم غمغمت الأم :

– لا أحد يجبرك على الزواج يا (إيمان) ، ولكن يمكنك مقابلة ذلك الشاب على الأقل .. فربما ..

مرة أخرى بترت الأم عبارتها ، وكأنما لا تجد داعياً لإتمامها ، فعقدت (إيمان) حاجبيها لحظة ، ثم غمغمت فى لهجة من حسم قراراً عسيراً :

– حسناً يا أماه .. سأقابله .. وكما تقولين .. من يدرى ؟ .. ربما ؟

وأكمل عقلها العبارة فى ارتياح :

– ربما كان فى ذلك الخلاص من مشكلة حبك لـ (فتحى) .



انتاب (إيمان) سخط شديد ، إزاء هذا القرار المتعجّل ، الذى اتخذته دون رويّة أو تدبُّر ، بعد أن انفردت بنفسها فى حجرتها ، وأخذت تستنكر موقفها السلبي فى حنَق ، وقد بدا لها الأمر كله سخيفاً ممجوجاً ..

من قال إن قبولها الزواج على هذا النحو ، يمكنه أن يخمد مشاعرها تجاه (فتحى) ؟ ..

وكيف تقبل عرض نفسها هكذا كالجوارى ، أمام رجل يطلب زواجها ، وهى لم تره ولو مرة واحدة ؟ ..

وألقت طلاء الشفاه من يدها فى حنَق ، قبل أن تصبغ به شفتيها ، وغمغمت فى عناد :

ـ يجب أن يرى العريس عروسه على طبيعتها .

ولكن عقلها لم يلبث أن اعترض ، وهو يحاول تكييف الأمر ، قائلا :

ـ وماذا فى ذلك ؟ ..

أمك تزوجت أبيك على هذا النحو ، وهاهما ذانِ يعيشان فى سعادة ..

إنك ترفضين الحب ، وليس الزواج ..

وهذا النوع من الزواج بالذات ، هو الذى يمنحك ما تريدين ..

إنه لا يطلب عواطفك أو مشاعرك ..

إنه الزواج المثالى لك ..

ولم يَرُقْ هذا الحوار لقلبها ، فاندفع يهتف فى جزَع :

ـ وماذا عن (فتحى) ؟ ..

إنك تحبينه ..

كلاَّ .. لا تنكرى ذلك ..

قد يمكنك خداع عقلك ، ولكنك لن تخدعينى أنا ..

أنا الذى أخفق حينما ترينه ..

أنا الذى أرتجف عندما تصافحينه ..

أنا أعلم حقيقة شعورك نحوه ..

ارتسمت الحيْرَة على قسمات (إيمان) ، وهى تستمع إلى حديث عقلها تارة ، وإلى هتاف قلبها تارة أخرى ، حتى حسمت رأيها فجأة ، فعقدت حاجبيها ، وهى تقول فى صرامة :

— نعم .. إنها الطريقة المثلى للزواج .

ثم التقطت طلاء الشفاه ، وصبغت به شفتيها فى حزم ..

لقد انتصر عقلها فى هذه الجولة ..

واندحر نداء القلب ..

ووصل العريس ..

لم تره حين وصوله ، ولكنها شعرت بذلك ، من الحركة العجيبة ، التى تصاعدت فى المنزل ، وتأكد شعورها حينما وصل إلى مسامعها صوت والدها ، وهو يرحب به فى حرارة ، وحينما اندفعت والدتها إلى حجرتها ، واضحة الفرح والسعادة ، وهى تهتف فى لهفة :

— هيّا يا (إيمان) .. لقد وصل عريسك .. هنيئاً لك يا بنيتى .. إنه وسيم الطلعة ، جميل المحيّا ، كالبدر المنير .

لم تشعر (إيمان) بفرح أمها وحماسها ، وإن سرَت فى جسدها قُشَعريرَة عجيبة ، وهى تلقى نظرة أخيرة

على مرآتها ، وتتبع أمها فى استسلام إلى حجرة الجلوس ..

وازدادت تلك القشعريرة ، وتحولت إلى برودة قاسية ، حينما تناهى إلى مسامعها صوت الحديث الدائر بين أبيها ، وشقيقها (حسام) ، وذلك العريس المنتظر ، وجارتهم السيدة (سهير) ، وهى تقترب من حجرة الجلوس خلف أمها ..

وتوقف ذلك الحديث دفعة واحدة ، حينما وصلت إلى هناك ..

وتجمّدت الدماء فى عروق (إيمان) ..

لقد كان العريس حقّا وسيماً ، أنيقاً ، تبدو سلامة ذوقه واضحة فى أناقة الحلة التى يرتديها ، ولكن ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهه ، هو الذى جمد الدماء فى عروقها ..

لقد تهللت أسارير والدها حينما رآها ، وابتسم شقيقها فى هدوء ، فى حين ارتسمت ابتسامة متحذلقة على شفتى السيدة (سهير) ، أما العريس نفسه فقد اتسعت عيناه قليلا ، وانفرجت شفتاه لحظة ، ثم تجمدت

ملامحـــه تماماً ، ونهض يصافحها فى برود زاد من ارتجافها وارتباكها .

وعاد الحديث يدور بين الجميع ، دون أن يلتفت إليهـا العريس مرة واحـدة ، أو يوجه إليها حديثاً ، ولو مقتضباً ..

كان يتجاهلها تماماً ، وكأنه يتعمد ذلك ..

وبدلا من أن تشعر بالغضب ، أو تثور كرامتها لذلك ، وجدت نفسها تنكمش فى مقعدها ، وتفقد ثقتها بنفسها تماماً ..

وحتى فى أثناء تناول طعام الغداء ، لم يتحدث إليها بكلمة واحدة ، وإنما اقتصر حديثه على والدها وشقيقها فقط ..

ولكن عبارة واحدة ، تبادلها مع شقيقها ، طعنت كيانها فى الصميم ..

عبارة واحدة قالهـا فى هدوء ، لم يخل من لمحة استنكار عجيبة ..

عبارة قتلتها قتلا ..

لقد كان يتحدث مع شقيقها حول دراسته بكلية الهندسة ، حينما بتر حديثه فجأة ، وهز رأسه فى تعجب ، ثم قال فى هدوء :

– عجباً ! ! .. إن ملامحك تختلف تماماً عن ملامح الدكتورة (إيمان) يا (حسام) ، على الرغم من أنكما شقيقان .

ولم ينتبه إلى مغزى عبارته سواها ، وسوى جارتهم السيدة (سهير) ، التى ابتسمت فى خبث ، وهى تنقل بصرها بينه وبينها ، أما هى فقد انكمشت ، حتى كادت تتلاشى فى مقعدها ، وشحب وجهها فى شدة ، وغُصَّ حلقها بمرارة شديدة ، وكادت تبكى فى ألم ، لولا قـدرتها على كتمان مشاعرها ، والتى اكتسبتها بمرور الوقت ..

وانتهى الغداء ، وانتهت معه (إيمان) ..

ولقد بدت يدها كقطعة من الثلج ، وهى تصافح العريس قبل انصرافه ، وهُرِعَت فوراً إلى حجرتها ، دون أن تنتظر رأى أسرتها فيما حدث ..

لقد كانت النتيجة واضحة جليّة ، منذ وقع عليها نظر العريس الوسيم ..

واندفعت دموعها من مقلتيها ، وهى تتطلّع إلى وجهها الدميم فى المرآة ..

وراحت تلعن نفسها فى غضب وسخط ..

كيف لم تخطر هذه النتيجة ببالها قط ؟..

كيف غاب عنها قبحها ، الذى ينفر منها أى شاب ..

لقد تصورت ، حينما حدثتها أمها عن ذلك العريس ، أنه قد رآها على الأقل ..

تصورت أنه يريد مهنتها لا ملامحها ..

وكان من الواضح أن دمامتها قد صدمته ..

ولا شك عندها فى أنه قد رفضها ..

رفضها لنفس السبب الذى ترفض هى من أجله نفسها ..

ولكن رفضه كان أقوى صدمة لمشاعرها فى حياتها كلها ..

إنه رفض علنى ..

إعلان للرفض أمام كل من يعلمون أمره ..

طعنة نجلاء فى ميدان عامّ مزدحم ..

ولكنها هى المسئولة ..

لقد تصوَّرت أن الزواج يختلف عن الحب ..

وبكى قلبها فى مرارة ، وصرخ عقلها فى ألم :

— حذارِ من تكرار الخطإ يا (إيمان) !! حذار !! حذار !! حذار !!

ولم يجرؤ قلبها فى هذه المرة على الاعتراض ..



٩ ــ المــرارة ..

كان لذلك الحادث أثره القويّ العنيف فى نفس (إيمان) ..

إنها لم تستطع بعده ارتداء قناع المرح الزائف أبداً ..

لم تعد تحتمل زيفه ، أو ثقله ..

صحيح أن أحداً من أسرتها لم يأت على ذكر تلك الواقعة أبداً ، حتى فيما بينهم ، وأنهم جميعاً قد تجاهلوا رفض العريس لها ، ولم يحاول أحدهم حتى نقل ذلك الرفض إليها ، إلا أنها شعرت أنها قد تجرَّدت من كل شىء أمامهم ، ولم يعد من اللازم أن تخفى ألمها ومرارتها خلف قناعها الزائف ..

وألقت قناعها خلفها ، وقررت أن تواجه الأمور على عِلاّتها ..

ولم تعُدْ تبتسم أبداً ..

حتى فى المستشفى ..

صحيح أنها لم تتوقف أبداً عن الاهتمام بالمرضى

ورعايتهم ، ولكنها أصبحت تفعل ذلك فى آلية وحزم ، دون أن تمنحهم ابتسامتها التقليدية ، التى كانت تنتزع منهم آلام أمراضهم ، ويأسهم ..

حتى (فتحى) ، صارت تتعمد تجاهله وتحاشيه ، فى عناد وإصرار ، على الرغم من أنها كانت تلمح الدهشة والحيرة فى ملامحه ، لتبدلها على هذا النحو ..

لقد أصرَّت هذه المرة على إغلاق قلبها تماماً ، فى وجه أية مشاعر أو عواطف ، مهما بلغ نبلها أو سموها ..

لم توصده هذه المرة فحسب ، بل أحاطته بصخور المرارة الصُّلبة ، الصَّلدة ، التى تعجز أقوى العواطف عن اختراقها وتجاوزها ..

لقد أقسمت على ألاّ تضعف أو تتراجع ، أو تعرّض نفسها لأية صدمة أخرى .

ولقد أثبتت لنفسها صلابتها ، بعد أسبوع واحد من ذلك الحادث ..

كان (فتحى) قد اعترض طريقها ، وهى تتحرك

بسرعة فى ردهة المستشفى ، وقال فى هدوء ، وهو يتفرّس فى ملامحها فى حيْرَة وقلق :

– صباح الخير يا دكتورة (إيمان) .

كادت تتجاهل تحيته ، إلا أنه كان يعترض طريقها على نحو مباشر ، فأجابته فى برود متعمّد :

– صباح الخير يا دكتور (فتحى) .. هل هناك تعليمات من الإدارة ؟

عاد يتأملها فى حيْرَة ، ثم أجاب فى هدوء :

– لا .. لقد ..

بتر حديثه لحظة ، ثم عاد يستطرد فى تردد :

– لقد أردت أن أسألك عن أحوالك .

قالت فى ضجر ، تعمدتْ أن يصل إليه :

– أنا فى خير حال .. شكراً لسؤالك .

ثم همّت بالانصراف على عجل ، إلا أنه أسرع يقول :

– دكتورة (إيمان) .. ماذا بك ؟

التفتت إليه ، وهى تقول فى حِدّة :

– ماذا بى ؟ .. إننى على خير ما يرام .

ارتبك أمام حِدّتها المفاجئة ، فتراجع خطوة إلى الخلف ، وهو يغمغم :

– معذرة .. إننى لم أقصد التدخل فى شئونك ، ولكنك تبدين حزينة منذ أسبوع و ..

قاطعته فى عصبية :

– هذا من شأنى وحدى .

عقد حاجبيه فى مزيج من الدهشة والحيْرَة ، وغمغم فى ارتباك :

– بالطبع .. هذا من شأنك وحدك .

ثم مال نحوها فجأة ، واستطرد فى حنان :

– (إيمان) .. إننى لم أقصد مضايقتك ، ولكننى أحمل لك كل احترام وتقدير و ..

لم تستمع إلى الجزء التالى من عبارته ..

لقد أعادتها كلماته إلى ذكرى بعيدة ..

أحمل لك كل احترام وتقدير !! ..

نفس عبارة (منير) وأسلوبه ..

نفس العبارة التى خدعتها ، وجعلتها تبنى قصوراً فى الهواء ، لم تلبث أن بعثرتها الرياح ، وتركت قلبها فى صحراء خربة جرداء ..

كلهم يستخدمون نفس العبارة ..

ولكنها لن تنخدع بها مرة أخرى ..

ووجدت نفسها تقاطعه فى حِدَّة :

— حسناً .. إنك تحمل لى كل احترام وتقدير .. هذا ظريف ، لقد وعيت الدرس جيداً ، فهلاَّ تركتنى أنصرف إلى عملى ؟

تراجع فى دهشة واستنكار ، ثم ما لبثت ملامحه أن اكتست بالغضب، وهو يفسح لها الطريق ، مغمغماً فى صرامة :

— انصرفى .. إننى لا أعوقك .

ابتعدت عنه فى خطوات عصبية سريعة ، وتساءل قلبها فى دهشة :

— لِمَ تعاملت معه على هذا النحو ؟

أجابته فى صرامة :

— إنه لن يخدعنى بعباراته المعسولة .

— ولكن عبارته كانت صادقة .

— وما أدراك ؟

— هل نسيت أننى أنا الذى أقدر ذلك ؟

— هراء .. لقد خُدعت فى مرة سابقة .

— الأمر هذه المرة يختلف ، لقد كنت فى المرة السابقة طفلا ، عديم الخبرة ، وكنت أتلهف للعواطف والحب ، أما فى هذه المرة ، فقد صرت حذراً ، متأنياً ، أجيد التمييز بين العواطف الحقيقية والزائفة :

— هذا ما تتصوره .

— أؤكد لك أننى على حق .

— بل على خطإ .. إنه مخادع .

— حسناً .. دعينا نسلم بقولك .. أخبرنى إذن لِمَ يحاول خداعك ؟.. إنك — كما تتصورين نفسك — دميمة لا تستحق اهتمام أحد .

حارت (إيمان) أمام هذا السؤال ، فهتفت فى أعماقها فى صرامة :

ـ هذا ما أومن به ، ولن أناقش الأمر أكثر من ذلك .

ولاذ قلبها بالصمت ، وهو يتأسف لما أصابها ، فى حين واصلت هى انهماكها فى العمل ، لتقاوم مشاعرها ..

واستوعب (فتحى) الدرس ..

لم يحاول اعتراض طريقها ، أو التحدث إليها منذ ذلك الحين ..

لقد أصبحت علاقته بها رسمية جافة ، وإن لم يبخل عليها بخبراته أبداً ..

وارتاحت هى لذلك الأسلوب ، الذى ينزع عنها التوتر والقلق ، ويضع الأمور فى النصاب الذى اختارته لها ، وظلت تنتظر فى لهفة انتهاء شهرى التدريب ، اللازمين لها فى مستشفى الحميات ، حتى تبتعد عن (فتحى) ، وعن المشكلة كلها ..

ولكن القدر أبى إلا أن ينكأ جرحها من جديد ، على الرغم من فرارها الدائم منه ..

كان ذلك فى نفس اليوم ، الذى انتهى فيه أول شهرَى التدريب ، وكانت قد عادت إلى منزلها فى وقت متأخر ، وهى منهكة ، متعبة ، ولم تكد تدلف إلى المنزل فى هدوء كعادتها ، حتى سمعت والدها يقول فى حِدَّة :

ـ لا تحاول إقناعى يا (حسام) .. الوقت لم يحن بعد لذلك .

لم تدرك سر حِدَّة والدها ، وهو يتحدث إلى شقيقها فى حجرته ، وكادت تتجاهل الأمر ، وتذهب من فورها إلى حجرتها ، لولا أن هتف (حسام) فى استنكار :

ـ لماذا يا أبى ؟ .. أنت تعلم أننى أنجح دائماً بتفوُّق ، وسأجتاز امتحانات السنة النهائية بعد شهر واحد ، ونجاحى مضمون بإذن الله .

أثارت عبارة شقيقها انتباهها ، وجعلتها تتساءل عما يتناقش فيه مع والدها ، وعلى الرغم من أنها تكره ذلك الأسلوب ، إلا أنها وجدت نفسها تسترق السمع

فى فضول ، فسمعت صوت والدها من حجرة شقيقها، يقول فى حزم :

— ليس هذا سبب رفضى يا (حسام) ، وإنما من الضرورى ألا تتم خطبتك إلى زميلتك هذه الآن .

صاح (حسام) فى استنكار واعتراض :

— هذا مستحيل يا أبى ، لابد أن أتقدم لخطبتها الآن ، وإلاّ فقدتها للأبد .

هتف الوالد فى حِدّة :

— كلاً .. ليس الآن .. لو أنها تحبك فلتنتظرك .

قال (حسام) فى يأس :

— لن يمكنها ذلك .. هناك من تقدم لها بالفعل .

ثم أردف فى حماس :

— ولن يكلفك ذلك قرشاً واحداً يا أبى .. أنت تعلم أننى أعمل طوال الإجازات الصيفية ، ولقد ادخرت مبلغاً يكفى و ..

قاطعه والده فى حزن :

— إنك لم تفهمنى يا ولدى .. إننى لا أرفض

خطبتك من أجل المال ، فوالدتك وأنا ندخر المال اللازم لزواجك وزواج شقيقتك ، ولكن ..

هتف (حسام) فى حيْرَة :

— ولكن ماذا يا أبى ؟

ساد الصمت لحظة ، ثم أجابه الوالد فى حزن :

— شقيقتك يا (حسام) .

انقبض قلب (إيمان) وهى تستمع إلى تلك الكلمة، واعتصرتها قبضة باردة كالثلج حينما فهمت مغزاها ..

ولم تكن بحاجة لسماع المزيد لتفهم ما يعنيه والدها، ولكنها جمدت فى مكانها، وهى تسمعه يستطرد فى مرارة:

— هل نسيت أن شقيقتك تكبرك بعامين ؟ .. وأنها لم تتزوج أو تخطب بعد ؟ .. هل تعلم ما الذى يمكن أن تفعله خطبتك لزميلتك بها؟..صدقنى ياولدى، إن ذلك سيؤلمها أشد الإيلام .. قد لا يبدو ذلك فى تصرفاتها أو ملامحها ، ولكننى واثق من أنها ستتعذب كثيراً .. هل فهمتنى يا ولدى .

مرت لحظة أخرى من الصمت ، اغرورقت فيها

عينا (إيمان) بالدموع ، قبل أن يغمغم شقيقها فى أسى :

– فهمت يا أبى .

كان الحزن والمرارة يقطران من صوت الأب ، وهو يقول :

– أعلم أنه ليس من اللائق أن أطالبك بدفع سعادتك ، ثمناً لهناءة شقيقتك ، ولكنك رجل ، ويمكنك الاحتمال أكثر منها .. ما قولك يا ولدى ؟

سالت الدموع غزيرة من عينى (إيمان) ، مع فترة الصمت الطويلة ، التى تلت عبارة والدها الأخيرة ، وتضاعفت مرارتها عشرات الأضعاف ..

إذن فمشكلتها لم تعد تقتصر عليها وحدها ..

لقد أصبحت دمامتها مشكلة عائلتها كلها ..

أو أنها كذلك منذ البداية ..

لا شك عندها الآن فى أن مشكلتها تعذب والديها منذ زمن طويل ، وها هى ذى تحاصر عواطف شقيقها الوحيد ، وتمنعه من استكمال سعادته وهناءته ..

لابد أن يرفض ذلك ..

لابدّ .. لابدّ ..

ولكن (حسام) أجاب والده ، بعد فترة صمت طويلة ، فى حزن صارم :

– أتسألنى قولى يا أبتاه ؟.. صحيح أن حبى لـ (نجلاء) قوى أكيد ، إلا أنه لا يقارن بحبى لشقيقتى (إيمان) .. ولن أوذىَ مشاعرها أبداً .

ثم أردف فى صلابة :

– لن أتقدم لخطبة (نجلاء) يا أبى .

صرخت (إيمان) فى أعماقها :

– كلاّ يا (حسام) .. كلاّ .. لا تخسر حبك من أجلى .

ووجدت نفسها تندفع إلى حجرة شقيقها بلا تفكير ، وتنقل صرخة أعماقها إلى شفتيها ، وهى تهتف :

– كلاّ .. يا (حسام) .. إننى لا أقبل ذلك .. لا أقبله أبداً .

ولم يعد هناك بدّ من مواجهة الأمر ..

* * *

١٠ ـ المواجهة ..

لم تدرك (إيمان) فداحة ما أقدمت عليه ، إلا حينما أصبحت داخل الحجرة ، ورأت الدهشة والجزع فى عينىّ والدها وشقيقها ..

لقد اقتحمت المشكلة بصورة علنية ، ولم يعد هناك مفرّ من المواجهة ..

وساد الصمت دقيقة كاملة ، بعد اقتحامها الحجرة ، قبل أن يغمغم شقيقها فى توتُّر :

— ماذا هناك يا (إيمان) ؟.. ماذا تعنين بعبارتك؟

أُرْتِجَ عليها لحظة ، لم تجد خلالها ما تقوله ، ثم لم تلبث أن أيقنت أن التراجع لم يعد ممكناً ، فقالت فى هدوء :

— لقد سمعت كل شىء ، وأنا أرفض هذا المنطق تماماً .

اتسعت عينا شقيقها فى ذعر ، فى حين غمغم والدها فى جزع :

— سمعت كل شىء .

التفتت إليه ، قائلة فى هدوء :

— نعم يا أبى ، ولست أدرى كيف يمكنك التضحية بسعادة (حسام) ، من أجل فكرة كهذه ؟

ارتبك والدها ، وهو يغمغم :

— إنها التقاليد يا (إيمان) و ..

ولم يجد ما يتم به عبارته ، فأطبق شفتيه فى ندم ، فى حين قالت هى :

— أية تقاليد يا أبى ؟ إن (حسام) يحب زميلته (نجلاء) ، ومن حقه أن يتقدم لخطبتها .

غمغم (حسام) فى اعتراض متخاذل :

— لا عليك يا (إيمان) .. لا أظن والدها يوافق .

ربّتتْ على كتفه ، وهى تقول فى حنان :

— تقدم لخطبتها أولا ، ودع قرار والدها لما بعد .

تمتم فى أسف :

— (إيمان) .. إننى لم أقصد ..

أطلقت ضحكة مغتصبة لتقاطعه ، ثم قالت فى رقة :

— لا تفكر فى انتظار زواجى يا (حسام) ، وإلا قضيت عمرك كله فى الانتظار .

هتف فى استنكار :

– كيف تقولين ذلك ؟ .. إنك ..

قاطعته مرة أخرى فى مرارة :

– لا تخدع نفسك ولا تخدعنى يا (حسام) ..أنت تعلم.. بل كلكم تعلمون أننى دميمة..لا أصلح للزواج .

شهق والدها فى دهشة ، فى حين عاد (حسام) يهتف فى استنكار :

– دميمة؟!.. من أين أتتك هذه الفكرة الحمقاء.

ابتسمت فى مرارة ، وهى تقول :

– حسناً .. فلنقل إننى لست جميلة .

ثم التفتت إلى والدها ، مستطردة :

– أرجوك يا أبى .. اقبل مطلب (حسام) .

غمغم الأب ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

– لا يمكننى يا (إيمان) .

هتفت فى ضراعة :

– لو أنك تظن أنك تفعل ذلك من أجلى ، فأنت مخطئ يا أبى ، إن رفضك فى هذه الحالة سيؤلمنى جداً ،

لأننى سأعد نفسى المسئولة عن شقاء (حسام) وحزنه .

غمغم الوالد ، وقد ترك دموعه تسيل على وجنتيه :

– ولكن يا (إيمان) ..

قاطعته فى رقة وضراعة :

– اقبل يا أبى .. أرجوك .

تبادل الأب وابنه نظرة حائرة حزينة ، ثم غمغم الأب فى استسلام :

– حسناً يا (إيمان) .. إننى أوافق .

أقبلت على والدها تشكره، وتقبّله فى امتنان ، ثم التفتت إلى شقيقها وقبلت وجنته فى حنان وهى تقول :

– ألف مبروك يا (حسام) .

تطلّع إليها شقيقها فى إشفاق ، وهو يغمغم :

– (إيمان) .. إننى ..

قاطعته فى حنان :

– لا تفسد هذه اللحظة السعيدة يا (حسام) .. ألف مبرك .

وقبل أن تترك له فرصة النطق بكلمة أخرى ،

انسلّت إلى حجرتها فى سرعة ، وأغلقت بابها خلفها فى هدوء ، ثم اتجهت فى خطوات بطيئة إلى مرآتها ، ووقفت تتأمل ملامحها فى حزن وسكون ..

ووجدت نفسها تغمغم فى ألم ..

هل رأيت ماذا فعلت دمامتك فى هذه الأسرة ؟..

هل رأيت كيف كادت تحطم سعادة شقيقك الوحيد ؟ ..

وبدت لها ملامحها فى تلك اللحظة أكثر دمامة من ذى قبل ..

بل بدت لها شديدة البشاعة ، كوجه مشوّه من تلك الوجوه ، التى تظهر فى أفلام الرعب ، حتى أنها لم تحتمل النظر إليه طويلا ، فأشاحت بوجهها عن المرآة فى ألم وامتعاض ، ولم تكد تفعل حتى رأت أمها أمامها ..

كانت تقف بباب الحجرة ، وتتطلع إليها فى حزن وألم وإشفاق ، وعيناها مبللتان بالدموع ..

وظلت كلاهما تواجه الأخرى لحظات ، ثم غمغمت (إيمان) فى خفوت :

— مرحباً يا أماه .

لم تجبها الأم ، بل تقدمت إلى الحجرة ، وأغلقت الباب خلفها فى هدوء ، ثم وقفت فى مواجهة ابنتها ، وانسالت دموعهما فى بطء وحرارة ..

وفجأة احتوت الأم ابنتها بين ذراعيها ، وتركت دموعها تنهمر فى غزارة ، وهى تهتف :

— لقد أخبرنى والدك بكل شىء يا (إيمان) .. لماذا قلت ذلك ؟ .. لماذا تظنين أنك هكذا ؟

تركت (إيمان) لدموعها العنان ، وهى تقول :

— ولكنها الحقيقة يا أماه .. الحقيقة .

أبعدتها الأم عن صدرها ، وأمسكت بكتفيها على طول ذراعيها ، وتأملت ملامحها لحظة ، ثم غمغمت فى حزن :

— أية حقيقة تلك يا (إيمان) ؟.. ربما أنك لست جميلة ، ولكنك لست دميمة بالتأكيد .

ابتسمت (إيمان) فى مرارة ، وهى تغمغم :

— شكراً يا أماه ، ولكننى أعرف حقيقتى جيداً .

هتفت الأم فى ألم :

- كلاً يا بنتى .. إنك تضخمين الأمور .

هزت (إيمان) رأسها فى قوة وهى تقول فى حدة :

- أية أمور يا أماه ؟ .. أأنا التى ضخمت أمر ذلك العريس ، الذى أصيب بصدمة حينما رأى ملامحى ؟ أم أنا التى ضخمت أمر .. ؟

بترت عبارتها فجأة ، وشحب وجهها ، حينما تنبهت إلى أنها كادت تفضح أمر مشاعرها دون وعى منها ..

ولكن والدتها فهمت ..

فهمت وسمعت ما لم تنطق به ابنتها ..

واحتوتها بين ذراعيها ، وهى تقول فى حنان :

- (إيمان) .. اصدقينى القول يا بنيتى .. هل رفضك شخص أحببتيه ؟

هتفت فى استنكار :

- لا يا أماه .. إننى لم ..

ولكن لسانها لم يجرؤ على النطق بالمزيد ..

هذه المرة بالذات عجزت عن المداراة والخداع .

هذه المرة بالذات ، خامرها شعور قوى بضرورة إفراغ ما تنوء بحمله ..

وتحولت دموعها إلى حمم تلهب وجهها ، وهى تدفن رأسها فى صدر أمها ، التى ربَّتَتْ على كتفها ورأسها فى حنان غامر ، وهى تغمغم :

- أفصحى عما يثقلك يا بنتى .. إننى أمك .

وسقط القناع ، وتحطم ، وتناثرت أشلاؤه ..

وانطلقت (إيمان) تروى لأمها كل شىء ..

كل شىء بلا روية أو تحفظ ..

كل آلامها ، وحزنها ، ومرارتها ..

كل عواطفها ومشاعرها وصدماتها ..

حتى قصتها مع (منير) ..

حتى حيرتها مع (فتحى) ..

انطلقت تروى كل شىء فى استطراد واندفاع ، وأمها تصغى إليها فى شفقة وحنان ، دون أن تقاطعها بحرف واحد ، مكتفية بإيماءة خافتة من رأسها ، أو زفرة هامسة من بين شفتيها . حتى انتهت (إيمان) ،

فعـادت الأم تضمهـا إلى صـدرها بمزيد من الحنـان والعطف ، وهى تغمغم :

— يا بنتى المسكينة .. كم شقيت وعانيت .

بكت (إيمان) ، وهى تقول فى حزن :

— إنه قدرى يا أماه .

أبعدتها أمها عن صدرها فى رفق ، وتطلعت إلى دموعها لحظة فى حنان ، ثم غمغمت :

— هل تثقين فى حكمى على الأمور يا (إيمان) ؟

أجابتها (إيمان) فى صدق وإخلاص :

— بالطبع يا أماه .

تنهدت الأم فى ارتياح ، ثم قالت :

— سأخبرك رأيى فى صراحة إذن .. إنك تعقدين الأمور ..

هتفت (إيمان) فى استنكار :

— أنا يا أماه ؟!

أومأت الأم برأسها إيجاباً ، وقالت :

— نعم أنت يا (إيمان) .

ثم استطردت فى خليط من الاهتمام والصرامة والحنان :

— لقد فشلت فى علاقتك مع (منير) ؛ لأنه لم يكن يحبك ، ولا علاقة بين الحب والجمال ، فالحب عاطفة قوية ، كاسحة ، لا تتوقف لتتأمل الملامح ، ولكنها تغوص إلى الأعماق ، وتنتقى اللؤلؤ الكامن فيها ، والله (سبحانه وتعالى) لم يخلق القبح أبداً ، فكل ما خلقه (سبحانه) جميل ، ولكن هـذا الجمال قـد لا يطفو إلى السطح ، فلا يكون جمال الوجه أو الملامح ، أو الجسم ، وإنما قد يكون جمال الطبائع أو الصفات ، أو الأخلاق ، ومن الخطإ أن نتصور أن الجمال الظاهرى هو الصورة الوحيدة للجمال .

غمغمت فى اعتراض

— هذا ما يتصوره الجميع .

هزت الأم رأسها نفياً فى قوة ، وقالت :

— خطأ يا بنيتى .. وأمامك مثال واضح ، ولكنك لم تنتبهى إليه ، فى غمرة يأسك ، وشعورك بالنقص .. إنه حب (منير) لـ (ناهد) ، فهى — كما علمت منك —

رائعة الجمال ، ولكنها مغرورة ، خبيثة ، متغطرسة ، وهذه الصفات وحدها كفيلة بإفساد أى زواج ، والرجال السطحيو التفكير وحدهم من يبحثون عن الجمال الظاهرى وحده .

ثم حركت كتفيها ، قبل أن تستطرد فى حنان :

– ولست أدرى أى نوع من الرجال (فتحى) هذا ، ولكن حديثك عنه يؤكد أنه رجل عاقل ، متزن ، رصين ، وأنا أعتقد أن مثل هذا النوع من الرجال ، يكون أقل مبالاة بالجمال الظاهرى ، وينصب اهتمامه دوماً على الجمال الباطنى ، الذى يختفى فى الأعماق .

ولم تكد تلمح الشك فى عينى ابنتها ، حتى أسرعت تردف :

– لست أحاول منحك أملاً ما بهذه الكلمات ، ولست أحاول دفعك إلى تبديل أسلوبك فى معاملته ؛ فهذا شأنك وحدك ، ولكننى أريد أن أقول إنه سيأتى يوم ، تجدين فيه ذلك الرجل ، الذى يلتقط لمحات الجمال من داخلك ، ولا يبالى بملامحك .

ثم ابتسمت ، متابعة :

– على الرغم من أنى أصرّ على أنك لست دميمة كما تتصوّرين .

ومالت على ابنتها وقبّلتها فى حنان ، وهى تقول :

– عندما تجدين الحب الحقيقى ، ستنهار كل هذه المخاوف التى تملأ نفسك ، وتوصد قلبك يا (إيمان) .

ثم نهضت استعداداً للانصراف ، ولكن (إيمان) أمسكت كفها ، وهى تقول فى امتنان :

– شكراً يا أماه .

ابتسمت الأم فى حنان ، وربّتت على كف ابنتها ، ثم انصرفت دون أن تزيد حرفاً واحداً ، وظلت (إيمان) صامتة بعد انصرافها بلحظات ، ثم أدارت عينيها إلى مرآتها ، وتطلعت إلى وجهها فى هدوء واستسلام ..

ومن العجيب أنه لم يبد لها بشعاً كما رأته منذ ساعة واحدة ..

لقد تجاوزت تلك المرحلة .. لقد نجحت المواجهة ..

* * *

١١ ـ وانقلبت الأمور ..

قضت (إيمان) ليلها كله ساهرة، مسهّدة، تتقلّب على فراشها، كما لو أنها ترقد فوق جمر مشتعل ..

لقد كانت تستعيد كلمات أمها مرات ومرات، وتقلبها على كل الوجوه، وفى كل مرة كانت تزداد اقتناعاً بها ..

إنها حقّاً تعقّد الأمور ..

إنها تصنع مشكلات من لا شىء ..

إذا كان (منير) قد خدعها، فهو لم يكن يقصد ذلك..

بل إنه فى الواقع لم يخدعها ..

هى التى خدعت نفسها ..

إنه لم يقل لها مرة واحدة إنه يحبها .

لم يُشِرْ إلى ذلك مطلقاً ..

هى التى وضعت ذلك الافتراض فى عقلها، وأجبرت قلبها على الاعتراف به ..

إنه لم يخدعها أبداً ..

وكذلك (فتحى) ..

لماذا تصورت أنه يخدعها ؟ ..

لماذا أصرّت على أن يدفع هو ثمن عقدتها، وانعدام ثقتها بنفسها ؟ ..

لماذا ترفض أن تحتفظ به كصديق، ما دامت ترفض الاعتراف به كحبيب ؟ ..

إنها حقّاً تعقّد الأمور ..

فلتتوقف عن معاملته بهذا الجفاء، وذلك البرود .

ولتتوقف أيضاً عن منحه المزيد من الاهتمام ..

فلتتجاهل فكرة حبها له، وتتعامل معه كصديق، وزميل عمل ..

إنه حتى زميل عمل مؤقت، فستغادر مستشفى الحميات كلها بعد شهر واحد ..

ومن العجيب أنها شعرت بالضيق، لأنها ستضطر إلى ذلك، طبقاً للائحة فترة الامتياز التى تمنعها العمل فى أى مجال طبى لأكثر من شهرين طوال فترة التدريب، ولكنها لم تلبث أن نفضت ضيقها، واتخذت قرارها ..

ستتعامل مع (فتحى) كما تتعامل مع أى زميل آخر ، على أن تحافظ على حذرها التقليدى ..

حذرها من الوقوع فى الحب ..

ولكن هل ستنجح ؟ .. هل سيمكنها ذلك ؟ ..

كان هذا هو السؤال ، الذى ظل يراود خاطرها ، وهى ترتدى ثوبها ، وتصفف شعرها فى اليوم التالى ..

وحتى وهى تحشر جسدها الضئيل فى الحافلة المزدحمة ..

وحينما وصلت إلى المستشفى ، كانت فى داخلها رغبة ملحة فى رؤية (فتحى) ومقابلته ، ولكنها كتمتها فى أعماقها ، واتجهت فى خطوات واسعة رشيقة إلى حجرة المدير ، حيث وضعت توقيعها فى دفتر الحضور والانصراف ، وأسرعت ترتدى معطفها الطبى ، وتبدأ عملها فى أروقة المستشفى وحجراته ..

وعلى الرغم من كثرة العمل ، وانهماكها فيه ، إلا أن رغبتها الملحة فى مقابلة (فتحى) لم تهدأ لحظة واحدة ، بل تصاعدت فى لهفة ، وكأنها تريد أن تمتحن قرارها ، وتختبره أمام مواجهة فعلية ..

لقد راقت لها المواجهات المباشرة ، بعد أن ذاقت نتائجها فى اليوم الماضى ..

وأخيراً رأته ..

كان يعبر أحد ممرات المستشفى بخطواته الرصينة ، حينما وقع بصرها عليه ، واختلج قلبها لرؤياه ..

وأدهشتها اختلاجة قلبها ، وارتجافته ، إلا أنها لم تشأ أن تتراجع ، فأسرعت الخطا نحوه ، واعترضت طريقه ، وهى تبتسم قائلة :

— صباح الخير يا دكتور (فتحى) .

ظهرت الدهشة فى ملامحه لحظة ، ولكنها لم تلبث أن اختفت خلف ابتسامته الهادئة الرصينة وهو يقول :

— صباح الخير يا دكتورة (إيمان) .. كيف حالك ؟

ضحكت فى مرح ، وهى تقول :

— فى خير حال .. شكراً لسؤالك .

ارتسم مزيد من الدهشة والحيرة فى قسماته ، وهو يتطلع إليها صامتاً ، فتصاعدت دماء الخجل إلى وجهها الشاحب ، وهى تخفض عينيها ، مغمغمة :

– لقد كنت سخيفة فى الفترة الماضية .. أليس كذلك ؟

تسلل صوته حنوناً دافئاً إلى أذنيها ، وهو يقول فى خفوت :

– أنت لا تكونين سخيفة أبداً يا دكتورة (إيمان).

رفعت إليه عينيها فى مزيج من الدهشة والحياء ، وهى تتمتم :

– ولكننى تعاملت معك ..

قاطعها فى رقة ، وهو يبتسم ابتسامة عذبة :

– لقد كنت متوترة الأعصاب فحسب ، وكل منا يمر بمثل هذه الفترات ما دام يمتلك أعصاباً وعروقاً .

غمر قلبها ارتياح كبير لحديثه الحنون الدافئ ، وانتقل ذلك الارتياح إلى شفتيها ، وهى تبتسم مغمغمة :

– هل يعنى ذلك أنك لا تشعر بأى غضب مما فعلته معك ؟

اتسعت ابتسامته ، وازدادت دفئاً وعذوبة ، وهو يهمس قائلا :

– مطلقاً يا دكتورة (إيمان) .. الإنسان لا يغضب من أولئك الذين يـ ..

بتر عبارته على نحو مفاجئ ، وعقد حاجبيه ، وهو يستطرد وقد تلاشت ابتسامته :

– من أولئك الذين يحترمهم ويقدرهم ..

وانتفض قلبها فى قوة ..

انتفض على نحو جعل جسدها كله يرتجف ..

انتفض ؛ لأنه خيل إليها أنه كاد يتفوه بكلمة أخرى لم تسمعها فى حياتها كلها ..

كلمة عاشت عمرها كله تتلهف لسماعها ..

وتطلعت إليه حائرة مشدوهة ، ولكنه أسرع يردف فى هدوء ، وقد عادت ابتسامته إلى شفتيه :

– كيف حال العمل ؟ .. اكتسبت مزيداً من الخبرات ؟

حاولت أن تبتسم ، إلا أن انفعالها جعلها تغمغم فى شحوب :

– لقد اكتسبت الكثير بالفعل ، ويمكنك أن تعاوننى على اكتساب المزيد .

ارتجف قلبها مرة أخرى ، حينما تطلع إلى عينيها مباشرة ، وقال فى حرارة :

– أنا على استعداد دائماً لفعل المستحيل ، من أجلك يا (إيمان) ..

يا إلهى !! .. ماذا يقصد بكلماته ؟ ..

ما الذى يفعله بها ؟ ..

أحقًّا ما تشعر به من كلماته ؟ ..

لقد خاطبها باسمها مجرداً ..

لقد نطقه فى حنان متدفق غامر ..

وصل ارتباكها إلى ذروته عند هذه النقطة ، فغمغمت فى تلعثم :

– معذرة يا دكتور (فتحى) .. هناك عمل ينتظرنى .. معذرة .

بدا عليه الضيق لحظة ، ثم ابتسم قائلا فى هدوء :

– لا عليك .

أسرعت تبتعد فى خطوات مرتبكة ، وقلبها ينبض فى عنف ، ويختلج بين ضلوعها فى قوة وحرارة ، حتى وصلت إلى حجرة طبيبات الامتياز . فألقت جسدها فوق فراش صغير ، وأخذت تلهث من فرط انفعالها ، وهى تتساءل :

ترى هل يقصد حقًّا ما فهمته ؟ ..

هل يحبها ؟ ..

هل عثرت أخيراً على الرجل الذى يتجاهل دمامتها ، ويبحث عن جمال روحها وأخلاقها ؟ ..

مستحيل ..

مستحيل أن يتحقق الحلم على هذا النحو المفاجئ ..

ومن المستحيل أيضاً أن تخطئ تفسير خفقان قلبها ..

ومرة أخرى نشب بين قلبها وعقلها ذلك الصراع ..

كان قلبها يهتف فى سعادة :

– نعم .. إنه يحبك يا (إيمان) .. لا يمكنك إنكار ذلك هذه المرة .

صاح عقلها فى غضب :

— صه أيها القلب .. كيف تجرؤ على الجزم بمشاعر الآخرين .

— أنا أجزم بمشاعرى أنا ، وهى تؤكد أنه يحبها .

— كما كان الأمر بالنسبة لـ (منير) ؟!

— كلاّ .. قلت من قبل إنه يختلف .

— لا تتسرع أيها القلب ، ولا تنس القاعدة .

— أية قاعدة ؟

— حذارِ من الحب .

— إنها قاعدتك أنت ، لا أنا ، فما خلقت إلا للحب ، فكيف أحذره ؟

— لقد مزّقك من قبل .

— هراء .. ما زلت أنبض بصورة طبيعية .

— لأنك نسيت .

— لم أنس ، ولكننى تعلمت .

— جاء دورى لأقول: (هراء) .. لو أنك تعلمت حقًا ما استسلمت بهذه السرعة .

— ما بالك ؟ .. هل تبغض الحب ؟ .

— أبغض الحب ؟! .. يا لها من متناقضة لفظية !!

إننى لا أبغض الحب بالطبع أيها القلب ، ولكننى أحذره ..

— لماذا نتجادل إذن ، ما دمنا نؤمن بالحب معاً ؟

— القاعدة تقول ..

— دعك من القواعد ، ولنطرح الأمر على صاحبته .. ماذا ترين أنت يا (إيمان) ؟

تنهدت (إيمان) ، وهى تبتسم ابتسامة واسعة ، وغمغمت فى هيام :

— بل هو يحبنى ، ما فى ذلك شك .

صمت عقلها فى غضب ، وهتف قلبها فى سعادة وظفر :

— نعم .. هو ذلك .

ونهضت (إيمان) ، ووجهها كله يتألق بابتسامة فرحة ، وأخذت تصفف شعرها أمام المرآة فى عناية ، ثم أسرعت خارج حجرة الطبيبات ، وقد امتلأ قلبها برغبة عارمة فى رؤية (فتحى) مرة أخرى ..

ودفعتها رغبتها القوية إلى أن تسأل أول ممرضة قابلتها ، دون خجل :

– هل رأيت الدكتور (فتحى) ؟

أومأت الممرضة برأسها إيجاباً ، وقالت :

– نعم .. إنه يقف أمام باب المبنى الثانى .

أسرعت (إيمان) إلى هناك ، وقلبها يختلج فى فرح .

ولم تكد تغادر باب المبنى ، المواجه للمكان الذى يقف فيه (فتحى) حتى جف حلقها ، وتبخرت سعادتها ، وارتجف جسدها ، وقفز مذاق المرارة إلى لسانها ، وصاح عقلها فى مزيج من الشماتة والغضب :

– هل رأيت أيها القلب ؟ .. لقد خدعتها مرة أخرى .. إنك أنت الملوم .

وصمت القلب فى ألم وخجل فلم يكن (فتحى) وحده .

كانت أمامه فتاة جميلة ، تبتسم فى سعادة ، وقد استكان كفها فى راحته ..

ومن عينيه كانت تطل نظرة لا يمكن أن تخطئها (إيمان) ..

نظرة حب ..

* * *

١٢ – الهـزيمة ..

غامت الدنيا أمام عينى (إيمان) ، ومادت بها الأرض ، ودار رأسها ، وترنحت كالذبيحة ، وانقبض قلبها فى قوة ، ثم توقف عن الخفقان فجأة ..

وتحجرت الدموع فى عينيها لحظة ، وهى تهتف من أعمق أعماقها :

– نفس الموقف .. نفس التتابع .

ثم تفجرت الدموع تغمر وجهها ، واندفعت عائدة إلى حجرة طبيبات الامتياز ، وهى تنتحب فى حرارة ، أدهشت ممرضات القسم ، حتى ألقت نفسها فوق نفس الفراش الصغير ، الذى كانت ترقد فوقه منذ قليل ، وأجهشت بالبكاء ، وهى تغمغم فى مرارة هائلة اكتسحت أعماقها كلها :

– كلهم مخادعون ..

كلهم لا يلتفتون إلىّ ..

كلهم يبحثون عن الجمال الظاهرى ..

لقد خدعت نفسك مرة أخرى يا (إيمان) ..
مزقت قلبك المسكين مرة ثانية ، وكأنما لم تكن تكفيه كل الطعنات ، التى نالها فى عمره ..
لماذا يا (إيمان) ؟ .. لماذا ؟ ..
لماذا حطمت القاعدة ؟ ..
لماذا تخليت عن حذرك ؟ ..
ألا تذكرين ؟ ..
حذارِ من الحب . وألف حذارِ ..
لن تنعمى به أبداً ..
لن تستمعى إلى همساته ..
لن تسبحى فى بحاره ..
لن تحصدى منه إلا الأشواك ..
الأشواك فقط يا (إيمان) ..
أما الزهور ، فهى لغيرك ..
الزهور للجميلات ، والأشواك للدميمات ..
لماذا يا (إيمان) ؟ .. لماذا ؟
وطفقت تبكى ، وتبكى ، وتبكى ، حتى أفرغت

من مقلتيها دموعاً ، لم تكن تتصور أنها تمتلىء بها ..
وفجأة توقفت دموعها ..
توقفت وكأنها قد نضبت فجأة ..
وهتف عقلها :
— لِمَ تبكين ؟
لقد حذَّرتك .
أخبرتك أن هذا ما سيحدث ..
لقد تجاهلت صوتى ، واستمعت إلى نداء قلبك ..
وها هى ذى النتيجة ..
شلال من الحزن والأسى والدموع ..
صدقينى .. الحب ليس لمثلك ..
حذارِ منه ..
هيَّا .. انهضى ، وجففى دموعك ، وواجهى الموقف فى قوة وصلابة ..
هيَّا يا (إيمان) ..
ونهضت (إيمان) ، وجففت دموعها ، وغادرت الحجرة لتعود إلى عملها ، وقد قررت مقاومة الصدمة ،

بكل ما تملك من قوة وصلابة وعناد ..

وعادت إلى العمل ..

لم تكد تبدأ العمل ، حتى سمعت صوته ..

صوت (فتحى) يهتف فى سعادة :

– (إيمان) .. وجهك يحمل لى الخير دائماً .

شعرت بخنق هائل يجتاح نفسها ، وهى تلتفت إليه ، وتقول فى جفاء :

– إنك تبدو سعيداً يا دكتور (فتحى) .

هتف بابتسامة مشرقة :

– هذا صحيح .. لقد سمعت اليوم أجمل خبر فى حياتى .

ابتسمت فى مرارة ، وهى تقول :

– دعنى أخمن .. أهو خبر يتعلق بخطبة قريبة ؟

اتسعت عيناه فى دهشة ، ثم أطلق ضحكة مرحة ، وهو يقول :

– عجباً !! .. هذا صحيح .. كيف أمكنكِ استنتاج ذلك ؟ .. هل تقرئين الأفكار ؟

عضت شفتيها ، وهى تقول فى سخط :

– تقريباً .

ثم أردفت فى عصبية :

– والآن هلاّ تركتنى لعملى ؟

حدّق فى وجهها فى دهشة ، وغمغم فى حيْرة :

– (إيمان) !! .. ماذا بك ؟

يا له من وَقِح صفيق !!

أيسألها ماذا بها ؟ ..

ألا يعلم أنه قد مزّق قلبها إرباً منذ لحظات ؟ ..

إنه لا يختلف كثيراً عن (منير) ..

إنهما شخص واحد ..

إنه نفس الموقف المرير ، الذى عاشته من قبل ، باستثناء أنه لم يطلب منها أن تخبر فتاته بحبه لها ..

لقد فعل هو ذلك بنفسه ..

نفس الهزيمة التى مُنيت بها من قبل ..

هزيمة جديدة تضاف إلى سجل هزائمها ..

وأيقظها صوت (فتحى) من أفكارها ، وهو يعاود سؤالها فى دهشة وحيْرَة :

– ماذا بك يا (إيمان) ؟

أجابته فى حِدَّة :

– دكتورة (إيمان) ،.. لا تهمل اللقب .

اتسعت عيناه فى مزيج من الدهشة والذعر ، وهو يغمغم :

– دكتورة ؟!

صاحت به :

– نعم.. دكتورة (إيمان) .. هذا هو اللقب ، الذى يخاطبنى به الجميع ،والذى أحب أن يخاطبنى به الجميع

تفرس فى وجهها فى حيرة قبل أن يسألها فى حنان:

– أحدث ما أثار أعصابك يا (إيمان) ؟

يا إلهى !! .. إنه يسألها مرة أخرى !! ..

يسألها عما أثار أعصابها ..

أرادت أن تصرخ فى وجهه ، أنه هو الذى فعل ذلك ..

هو الذى أثارها ، وحطّمها ..

كادت تخبره بذلك بالفعل ، لولا أن تمالكت أعصابها ، وقالت فى حِدَّة :

– ليس هذا من شأنك .

تراجع فى جزع ، وهو يقول فى حيْرَة :

– لست أفهمك .. حقيقة لست أفهمك .

صرخت فى وجهه فى غضب :

– ومن طلب منك أن تفهمنى ؟

انعقد حاجباه فى غضب ، وكأنما لم يعد يحتمل ثورتها ، وقال فى حِدَّة مماثلة :

– لا أحد .. ولا أحد يمكنه أن يفهمك .

ثم ابتعد عنها فى خطوات غاضبة سريعة ، وتركها نهبة لثورة عارمة فى أعماقها ..

ماذا يريد منها ؟ ..

فليبتعد عن طريقها ..

إنها ترفض صداقته ..

ترفض زمالته ..

إنها تمنحه كل الحق فى أن يرفض حبها ، وتمنح نفسها الحق نفســه فى أن ترفض كل ارتباطاتها الأخرى به ..

سترفض حتى معاونته لها فى العمل ..

سترفضه كياناً وروحاً ..

وفجأة انتزعها من أفكارها صوت يهتف فى لهفة :

– (إيمان) ؟!.. يا لها من مفاجأة ! !

التفتت إلى مصدر الصوت فى دهشة ، ثم تسمَّرت فى موقعها ، وتجمَّدت كالثلج ..

لقد كان (منير) ..

أول من حطَّم قلبها ..

أول هزيمة فى عمرها العاطفى البائس ..



١٣ – لقاء الماضى ..

امتلأ قلب (إيمان) بمزيج من الدهشة والحنَق والغضب ، حينما رأت (منير) ..

كان آخر شخص تتوقع رؤيته ، أو تتمناها فى هذه اللحظة بالذات ..

لقد كان الحاضر يكفيها ، ولم تكن تحتاج إلى لقاء مع ماض مؤلم مثل (منير) .

ولقد اندفع هو نحوها ، وصافحها فى حرارة ، وهو يهتف :

– أهلاً بك يا (إيمان) .. كم أشعر بالتفاؤل لرؤيتك .

صافحته فى برود ، واغتصبت ابتسامة ، وهى تقول فى هدوء :

– كيف حالك ؟ .. وكيف حال (ناهد) ؟

قلب شفتيه ، وهو يقول فى ضيق :

– إنها إنسانة لا تطاق يا (إيمان) ، لقد خدعنى

مظهرها الجميل ، وفاجأنى جوهرها الردىء بعد الزواج .

رفعت حاجبيها فى دهشة ، وهى تقول :

— لهذا الحد ؟! .. لقد كنت أظنكما متحابين .

هزَّ رأسه نفياً ، وهو يقول فى أسف :

— لا للأسف يا (إيمان) .. إنها لا تصلح زوجة .

ملأتها الدهشة حتى أعماقها ، وهى تغمغم :

— عجباً !! .. لماذا تقول ذلك يا (منير) ؟

زفر فى ضيق عميق ، ولوَّح بكفه ، وهو يقول :

— لايمكنك أن تتصورى كم هى أنانية ، متغطرسة ، مغرورة يا (إيمان) .. إنها ترفض أن تمد إصبعاً فى أعمال المنزل ، كأنما ذلك عار أو مهانة ، وترفض حتى أن تقضى بعض الوقت فى منزلنا ، أو تنتظرنى عند عودتى من عملى ، بل تقضى نهارها كله فى النادى ، ومساءها كله فى فيلا والدتها ، التى تحمل أيضاً نفس غطرستها وغرورها ، كما أنها تعاملنى دائماً كما لو كنت

من طبقة أدنى ، وحتى ابننا (نادر) ، نهمله تماماً .

ياللعجب !! .. كل كلمة نطقت بها أمها بشأن (منير) و (ناهد) تحققت تماماً ..

لقد خدعه جمالها فى البداية ، ثم عذَّبه جوهرها فى النهاية .

لقد جذبه جمالها الظاهرى ، وأهمل قبحها الداخلى ..

وبدا لها (منير) فى هذه اللحظة طفلا ، سطحى التفكير ، مهتز الشخصية ، حتى أنها شعرت بالدهشة ، لأنها أحبته يوماً ..

وسألته فى هدوء :

— لماذا أتيت إلى هنا يا (منير) ؟ .. إنك جرَّاح ، ولا شأن للحميات بالجراحة .

ظهر حزن عميق فى عينيه ، وهو يقول :

— لقد أتيت من أجل ولدى (نادر) .

سألته فى جزع :

— ماذا به ؟

قلب كفه ، وهو يقول فى ألم :

— لقد أصيب بحمى نادرة يا (إيمان) ، ولقد ذهبت به إلى كل المستشفيات الخاصة ، ولكنهم رفضوا علاجه ، بحجة أن هذه الحمى شديدة العدوى ، وتحتاج إلى عزل كامل ، وعناية خاصة . وأشاروا بقدومى إلى هنا .

سألته فى أسف :

— وأين هو ؟

أشار بيده إشارة مبهمة ، وهو يغمغم :

— الدكتور (فتحى) يفحصه فى حجرة الكشف .

ترددت (إيمان) لحظة ، حينما أتى (منير) على ذكر الدكتور (فتحى) ، ثم قالت فى حزم :

— دعنى أره .

وسبقته فى خطوات سريعة إلى حجرة الكشف ، وتوقفت لحظة ، حينما وقع بصرها على الدكتور (فتحى) ، وهو يفحص الطفل ، ثم تابعت طريقها إلى الداخل ، وسألته فى لهجة جافة :

— ماذا وجدت ؟

أجابها فى أسف ، دون أن يرفع عينيه إليها :

— الحالة بالغة الخطورة ، والحمى نفسها شديدة العَدْوَى .

سألته فى توتُّر :

— هل يمكن شفاؤها ؟

مطّ شفتيه ، وهو يقول فى أسف :

— الأمل ضئيل للغاية ، فالحمى منتشرة بشكل مخيف ، ودرجات الحرارة لا تنخفض ، و ..

قاطعته فى حِدَّة ، وهى تختلس النظر إلى وجه (منير) الشاحب ، وشفتيه اللتين ترتجفان فى قوة ، وكأنه يهمّ بالبكاء .

— لابد من وجود وسيلة .

هزّ كتفيه مغمغماً :

— بل محاولة يائسة ، وشديدة الصعوبة .. إنه يحتاج إلى متابعة كاملة ، أربعاً وعشرين ساعة يوميًّا و ..

قاطعته فى حزم :

— سأتولَّى علاجه بنفسى .

رفع عينيه إليها لأول مرة ، وعقد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

— هل جُننت ؟! .. قلت لك إنه مرض شديد العدْوَى .

كررت فى صلابة وعناد :

— قلت إننى سأتولى علاجه بنفسى يادكتور (فتحى) .

هتف فى توتر :

— لن أسمح لك .

صاحت فى حِدَّة :

— ومن طلب موافقتك ؟! .. هذه الحالة تخصنى ، وسأتولى علاجها ومتابعتها بنفسى ، ولتفعل بى بعد ذلك ما يحلو لك .

اختفى التوتر من صوته ، وبدا أقرب إلى التوسل ، وهو يغمغم :

— (إيمان) .. أرجوك ..

قاطعته فى صرامة :

— لن أتراجع يا دكتور (فتحى) .

تراجع فى توتر شديد ، وصمت لحظة ، ثم قال فى أسف :

— كما يحلو لك .

وهنا اندفع (منير) يلتقط كفها فى راحته ، كما اعتاد أن يفعل ، وهو يهتف :

— شكراً لك يا (إيمان) .. لن أنسى هذا الجميل أبداً .. إننى ..

قاطعه صوت الدكتور (فتحى) ، وقد استعاد صلابته ، وهو يقول :

— لست أدرى ما إذا كان جميلا أم حماقة ، ولكننى سأتركها تفعل يا دكتور (منير) .. من أجل عنادها .

وبدأت (إيمان) علاجها تحت إشراف (فتحى) .. وأسرفت فى اهتمامها بالصغير ، أكثر من أى مريض آخر ..

لم تعد تغادر المستشفى أبداً ..

كانت تمضى نهارها وليلها إلى جواره ..

تُناوِلهُ الدواء ، وتضع له الكمّادات الباردة ، وتدفع المحاليل فى عروقه ..

لم تذُق طعم النوم لأسبوع كامل ، وهى تولى الطفل كل رعايتها وعنايتها ..

ربما لأنه طفل ..

وربما لأنه ابن (منير) بالذات ..

ومن العجيب أن (ناهد) زوجة (منير) ، كانت باردة العواطف إزاء مرض ابنها ..

كانت تكتفى بزيارته لنصف ساعة يوميًّا ، بكامل زينتها وأناقتها ، ثم تنصرف بعد أن تطلب من (إيمان) — فى عجرفة — أن توليه مزيداً من الرعاية ..

وازداد نحول (إيمان) إلى درجة مفزعة ..

أصبحت كُومة من العظام والجلد ..

حتى عيناها ، فقدتا بريقهما واتساعهما ..

حتى شعرها لم تعد توليه الاهتمام التقليدى ، بل تركته ينسدل على كتفيها بلا نظام ..

وكانت ترفض أن تصغى إلى (فتحى) ، حينما يطلب منها أن تخلد للراحة ..

وذات ليلة ، وبعد أن انتهى من فحصه للطفل ، التفت إليها ، قائلا :

— لقد حققت معجزة يا (إيمان) .. لقد تماثل الصغير للشفاء .

ابتسمت ابتسامة شاحبة ، وهى تقول :

— حمداً لله .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم اقترب منها (فتحى) ، ووضع كفه على كتفها ، وهو يقول فى حنان :

— (إيمان) .. أرجوك .. أنت منهكة تماماً .. اذهبى للنوم ، وسأبقى أنا إلى جوار الصغير .

أجابته فى برود ، وهى تبعد كفه عن كتفها :

— لا .. سأبقى إلى جواره .

هتف فى عصبية ، وهو يلوّح بكفه فى الهواء :

- إنك تقتلين نفسك يا (إيمان) .. ألم ترى وجهك فى المرآة ؟ .. لقد بلغ بك الإرهاق ذروته ، ولابد لك من الحصول على بعض الراحة ، ولقد تماثل الطفل للشفاء ، ولم يعد هناك مبرر لتعذيب نفسك على هذا النحو .

تنهدت ، وهى تقول فى هدوء :

- لن أحصل على الراحة إلا بعد أن يغادر الصغير فراش المرض ، فهو يحتاج إلى متابعة دائمة ، لا أثق فيمن يمنحه إياها غيرى .

أجابها فى حِدّة :

- قلت لك إننى سأبقى إلى جواره .

ابتسمت فى مرارة ، وهى تقول :

- ربما أعجزتك ظروفك عن أن تفعل يادكتور (فتحى) .

عقد حاجبيه ، وهو يغمغم فى حيْرَة :

- ظروفى ؟! .. ماذا تعنين ؟

شعرت بدوار يحيط برأسها ، وهى تجيب :

- قد ترفض خطيبتك مثلا .

اتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يهتف :

- خطيبتى ؟! .. أية خطيبة ؟

تضاعف الدُّوار ، حتى أنها أسبلت جفنيها ، وهى تغمغم فى وهن :

- تلك التى كنت تحتضن كفها فى راحتك ، فى حديقة المستشفى .

هتف بمزيد من الدهشة :

- أنا ؟!

أجابته فى ضعف ، وهى تحاول جاهدة أن تبتسم :

- ألا تذكر يا دكتور (فتحى) ؟ .. عجباً ! .. لقد كان ذلك فى نفس اليوم الذى دخل فيه (نادر) إلى المستشفى .. نفس اليوم الذى كنت تطير فيه من فرط السعادة .

عقد حاجبيه لحظة ، وكأنه يحاول أن يتذكر ، ثم هتف فجأة :

– يا إلهى ! ! .. أهذا هو السر إذن ؟

شعرت (إيمان) أنها تبذل جهداً خارقاً لتحافظ على وعيها ، وتُبقى عينيها نصف مفتوحتين ، وهى تغمغم فى صوت شديد الخفوت :

– السر ؟! .. أى سر ؟

أطلق ضحكة مرحة ، بدت فى أذنيها كصدى يأتى من قرار سحيق ، قبل أن يقول :

– سر معاملتك لى بهذا الجفاء .

ثم مال نحوها ، قائلا فى حنان :

– أيتها الشقية .. لقد صنعت قصة كاملة فى رأسك دون أن تحاولى سؤالى على الأقل .

غمغمت فى ضعف هائل :

– ولماذا أسألك ؟

هتف فى وُدّ :

– حتى لا نضيع كل هذا الوقت .

ثم استطرد فى انفعال هادئ حنون :

– لقد أخطأت فهم الأمور يا (إيمان) .

تمتمت فى صوت لم يسمعه سواها :

– أخطأت ؟!

واستطرد هو فى هدوء :

– إنها ليست خطيبتى كما تصورت .. إنها ..

لم تستمع إلى باقى عبارته ..

لقد مادت بها الأرض فجأة ، وأظلمت الحجرة أمام عينيها ، وتهاوت فجأة بين ذراعيه فاقدة الوعى ..

ولم تستمع إلى صوته ، بكل جزعه ولوعته ، وهو يصرخ :

– يا إلهى ! ! .. إنها ساخنة كالجمر .. لقد أصابتها العدْوَى ..

يا إلهى ! ! .. يا إلهى ! ! ..

وكان صوته يحمل الكثير ..



١٤ ـ عقل وقلب ..

ظلت (إيمان) تهوى طويلا فى بئر مظلمة بلا قرار ..

كانت تهوى فى صمت واستسلام ، وكأنما ترغب فى الوصول إلى قرار البئر ..

ثم بدأت سرعة سقوطها تنخفض فى بطء ..

وتنخفض .. وتنخفض .. حتى توقف جسدُها عن السقوط ..

وبدأت مرحلة من انعدام الوزن ، هام فيها جسدها وسط ظلام دامس ، لم تلبث أن تخللته بعض الأضواء الباهتة ، وبعض الأصوات غير المميزة ..

وفجأة بدأت تشعر بجسدها ..

إنها تشعر به بالفعل ..

تشعر به يرقد فوق فراش وثير ، ويبتَلّ بعرق غزير ..

وأصبحت الأضواء أكثر وضوحاً ، والأصوات أكثر ارتفاعاً وتميُّزاً ..

وفتحت (إيمان) عينيها فى بطء ..

كانت هناك وجوه عديدة تملأ المكان ..

وجوه كلها معروفة ، ومألوفة ..

وجه أمها وأبيها ، وشقيقها ..

والدكتور (فتحى) ..

كان وحده يجلس إلى جوار فراشها ، ويحتضن كفها فى راحته ، وقد بدا أكثر نحولا ، وقد تغطى وجهه الوسيم بشعيرات صغيرة ، غمرت لحيته وشاربه ..

ولم تكد تفتح عينيها ، وتتطلع إليه ، حتى تنهَّد فى ارتياح شديد ، وتألقت عيناه ببريق عجيب ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية ، وشدد من احتضان راحتيه لكفها .

وتفجرت الدموع فى عيون والدها وشقيقها ، ووالدتها التى هتفت فى سعادة :

ـ حمداً لله يا بنيتى .. حمداً لله على شفائك .

سألتهم فى حيْرَة :

ـ ماذا حدث ؟

أجابها الدكتور (فتحى) فى حنان :

— لقد أصابتك عَدْوَى الحُمَّى .

غمغمت فى دهشة :

— يا إلهى ! !

قال والدها فى حب وسعادة :

— لقد كانت عدوى قاتلة — كما قال الجميع — يا بنيتى ، ولكن فضل شفائك يعود إلى الله (سبحانه وتعالى) ، وإلى إصرار الدكتور (فتحى) ، وإشرافه على علاجك طوال أسبوع كامل .

هتفت فى دهشة :

— هل فقدت الوعى أسبوعاً كاملا ؟

أجابتها أمها :

— حمداً لله يا بنيتى .. كان من الممكن ألا تستيقظى أبداً ، لولا ما فعله الدكتور (فتحى) .

التفتت إليه ، تملأ عينيها بابتسامته العذبة الحنون ، وهى تغمغم :

— هل فعلت ذلك حقّاً ؟

أجابها فى صوت لم تسمع أرقّ منه فى حياتها كلها :

— ألم أعدك بأننى سأفعل المستحيل من أجلك .

غمغمت فى امتنان :

— لقد فعلته يا دكتور (فتحى) .

ثم استطردت فى اهتمام :

— كيف حال (نادر) ، ابن (منير) ؟

أجابها فى حنان :

— لقد شفى من مرضه ، وغادر المستشفى.. اطمئنى.

نقلت بصرها إلى الجميع فى ارتياح ، فقالت والدتها ، وهى تجفف دموعها :

— كم أتمنى احتضانك يا بنيتى ، ولكن الدكتور (فتحى) يمنع ذلك ، خشية أن نصاب بالعدْوَى .

ابتسمت ، وهى تقول :

— استمعى إلى أوامره يا أماه ، فهو طبيب ممتاز ، يؤدى عمله بأمانة ..

تبادلت الأم نظرة حانية مع الأب والشقيق ، ثم قال الأب فى حنان :

– استمعى إليه أنت يا بنتى ، فلديه الكثير مما يود قوله لك ، وسأنتظر مع أمك وشقيقك فى الخارج ، حتى تنتهيا .

نقلت بصرها فى حيْرَة بين وجـه (فتحى) ، ووجوه أفراد أسرتهـا الصغيرة ، حتى انصرفوا ، وأغلقوا باب الحجرة خلفهم ، فسألته فى تردُّد :

– ماذا لديك يا دكتور (فتحى) ؟

ابتسم وهو يقول فى هدوء :

– إننا لم نتم ذلك الحديث ، الذى بدأناه فى حجرة (نادر) ، قبل أن تفقدى وعيك .

ابتسمت فى شحوب وارتباك ، وهى تغمغم :

– دعنا نتمّه إذن .

تنهد فى قوة ، ثم تطلع إلى عينيها مباشرة ، وهـو يقول :

– تلك الفتاة التى رأيتينى معها لم تكن خطيبتى يا (إيمان) .

أشاحت بوجهها ، وهى تغمغم فى ضيق :

– هذا لا يعنينى .

تجاهل اعتراضها ، وهو يستطرد قائلا :

– لقد كانت شقيقتى .. شقيقتى الصغرى .

التفتت إليه دفعة واحدة ، وهى تهتف فى دهشة :

– شقيقتك ؟! ولكنك كنت تتطلع إليها فى حب .

ابتسم وهو يقول :

– وهل من الخطإ أن أتطلع إلى شقيقتى فى حب ؟

ثم استعاد لهجته الجادة ، وهو يردف :

– لقـد جاءت لتخبرنى أن الشاب الذى أحبتـه سيتقدم لخطبتها ، وكانت فى قمة سعادتها وفرحها ، ولقد شعرت بالسعادة أيضاً ، وحينما قلت أنت إن ما يسعدنى هو موضوع خاص بخطبة قريبة ، أجبتك بالإيجاب ، وكنت أقصد أنها خطبة شقيقتى ، وليست خطبتى أنا .

اختلج قلبها ، وهى تقول فى خفوت :

– ولماذا لم تخبرنى ؟

هزَّ كتفيه ، قائلا :

– إنك لم تمنحيني الفرصة يا (إيمان) .. لقد اتخذت مني موقفاً عدائيـاً فوراً .

– ساد الصمت بينهما لحظة، ثم غمغمتْ في خجل :

– ولكن لماذا تخبرني بذلك ؟

تطلع إلى عينيهـا بنظرة حانيـة ، وضم كفها إلى صدره ، وهو يقول في همس :

– لأنني أريد أن أتزوجك يا (إيمان) .

اختلج قلبها ، وانتفض ، وارتجف ..

يتزوجها ؟! ..

هل يقصد حقـاً ما يقول ؟ ..

هل يعني ما تعنيه كلماته ؟ ..

وغمغمت في دهشة بالغة :

– تتزوجني ؟!

هتف في حب :

– هذا منتهى أملي يا (إيمان) .

كان قلبها يرقص فرحاً ، إلا أن عقلها دفعها لأن تقول في حِدَّة :

– ماذا أصابك ؟ .. ألم تر ملامحي ؟ .. ألم تر وجهي ؟ .. هل تقبل أن تتزوج فتاة دميمة مثلي ؟.

صاح في استنكار :

– دميمة ؟! ..

هتفت في مرارة :

– إنها الحقيقة ، فلا تستنكرها .. ألم تر أنفي الطويل ، ووجهي النحيل و .. ؟

أوقف حديثها بلمسة حانية من أنامله لشفتيها، جعلتها ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها ، وهو يقول :

– لا تتفوَّهي بكلمة أخرى يا (إيمان) .. إذا كنت ترين أن وجهك دميم ، فأنا أعشق دمامتك ، وأراها أجمل من ملكات الجمال ، ولكنك لست بقبيحة أو دميمة .. إنك أرق مخلوقة عرفتها في حياتي كلها .. إنك كتلة من الحنان والحب والمشاعر الطيبة .. وأقسم لك أنك لست دميمة ، في عيني على الأقل .. إنك جميلة يا (إيمان) .. جميلة بكل ما تحمله روحك من نقاء وصفاء .. إنك أجمل مخلوق في حياتي ..

ارتفع حاجباها ، وهى تغمغم فى دهشة :

— لِمَ تقول ذلك يا (فتحى) ؟

أجابها فى حرارة :

— لأنها الحقيقة .

واتسعت ابتسامته ، وهو يردف فى همس :

— ولأننى أحبك .

اتسعت عيناها ، وهى تحدِّق فى وجهه ، غير مصدِّقة ما سمعته أذناها ..

يحبها ؟! ..

(فتحى) الوسيم ، الأنيق ، يحبها هى ؟! ..

هل تسللت إلى مسامعها أخيراً كلمة الحب ؟ ..

أهى مستيقظة ، أم أن هذا هذيان الحمى ؟ ..

وعاد هو يكرر ، وهو يحتضن كفها فى حب :

— نعم أحبك يا (إيمان) .. أحبك .. أحبك .. أحبك كما لم أحب مخلوقاً فى العالم كله .. أحبك .

ارتجف قلبها فى سعادة ، وهى تغمغم :

— تحبنى ؟!

هتف فى حب وإخلاص :

— ستكونين لى خير زوجة — بإذن الله — يا (إيمان) ، وسأعمل جاهداً على أن أكون لك خير زوج .

أطلَّ الحب من عينيها فى وضوح ، وهى تغمغم :

— سأفعل أقصى ما يمكننى لأسعدك يا (فتحى) .

ارتسم الحب كله فى ابتسامته ، وهو يهمس :

— أنا واثق من ذلك يا حبيبتى .

وهتف قلبها فى سعادة جمة :

— هل رأيت أيها العقل ؟ .. لقد كنت أنا على حق .. إنه يحبها .

أجابه العقل فى فرح :

— إننى أعترف لك بالنصر هذه المرة ، ودون حقد أو غضب .

غمغم القلب فى خبث :

— وماذا عن القواعد ؟

قال العقل فى حيْرَة :

— أية قواعد ؟

تمتم القلب :

— حذارِ من الحب .

ضحك العقل وهو يقول :

— دعك منها .. لقد ألغيت .. اليوم لدىَّ قواعد جديدة .

وغمره تيار الحب الذى تدفَّق فى عروق (إيمان) و (فتحى) ، فاستطرد فى نَشْوَة :

— القاعدة الجديدة هى « فلنَحْىَ للحب .. الحب وحده » .

ولأول مرة فى حياة (إيمان) اتفق عقلها وقلبها ، وحلَّ السلام محلَّ صراعهما الدائم ، واستكانا فى جسدها ، تغمرهما السعادة ..

وكان النصر للحب ..

الحب وحده .

* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب
أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل



حذار من الحب

لم تكن (إيمان) فتاة جميلة، بل كانت تنظر إلى نفسها على أنها مثال للدمامة والقبح، وجعلها هذا تتحاشى الحب، وحينما تخلت عن حذرها منه، كان نصيبها صدمة زلزلت كيانها، فقررت ألا تقع في الحب أبدًا، حتى ظهر (فتحي) في حياتها، فماذا تفعل؟.. هل تحتفظ بمبدئها، وتبتعد عن الوقوع في الحب، أو تتخلى عنه، ويكون نصيبها صدمة جديدة؟..

قرش جنيه
١٫٥٠

الثمن في مصر
ومايعادل دولارًا أمريكيًا في [illegible] العربية والعالم